

محمد محمد فياص

DS
23
F35x
1464

تيمورلنك

١٣٩

اقرا

دارالمعارف بمصر

افرا ۱۳۹ - اول يوليو ۱۹۵۴

۹۵۳, ۱۵۳
عام . ت



37467

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

تسمو لنك هو آخر الشخصيات القذة التي سجل لها التاريخ اسم الغزاة أو الفاتحين . إذ لم يحاول رجل بعده أن يسود العالم بخد السيف إلا أصابته الهزيمة وباء بالفشل . فثابليون لمع نجمه فترة من الزمن وكان مصيره النفي إلى جزيرة صغيرة بعيدة عن العمران . وغليوم الثاني إمبراطور ألمانيا ذو اليد الحديدية ، تنحى عن عرشه ولجأ إلى بلدة أجنبية فأوته إلى أن ضمه القبر . وهتلر الذي اكتسح أوروبا ونشر الرعب في أمريكا توالى عليه الخطوب وقضى آخر أيامه في محباً تحت الأرض ثم انتحر .

أما تيمورلنك فكانت حياته سلسلة انتصارات متعاقبة . زلزلت العروش وهوت بالتيجان وأذلت الشعوب ، ومهدت له سبيل السيادة المطلقة على نصف العالم المعروف في عصره . ومات وهو في أوج عزه ومنعة سلطانه . وظهر قبله من الغزاة إسكندر المقدوني . ولكن هذا ورث

الملك عن أبيه فيليب ، ووجد بجانبه جيشاً قوياً له ماض مجيد ، فاتخذته نواة لفتوحاته . أما تيمورلنك فلم يكن من سلالة الملوك ولم يرث عن أبيه سوى قطعة أرض زراعية وبعض الماشية .

وتاريخ الإسكندر معروف بتفاصيله ، ويسهل تتبعه من مولده إلى وفاته . أما تيمورلنك وهو أقرب إلى عصرنا من الإسكندر بنحو ستة عشر قرناً فتاريخه مهمل مجهول ، ولا يعرف عنه إلا ناحية من حياته جعلته بغيضاً ممقوتاً . وهي نزعته إلى التخريب وسفك الدماء . كلما ذكر اسمه ذكرت . كأنه اختص دون سواه بهذه الوصفة . وأنه لمن حقه على التاريخ أن تصور حياته بنواحيها المختلفة ليتبين منها الغث والسمين .

وقد فطن تيمورلنك إلى أن العالم قد لا ينصفه ، فأمر كتاب ديوانه في العهد الأخير من حكمه أن يدونوا الحوادث اليومية في سجل خاص . وفي سنة ١٤٠٠ م أعطى هذا السجل لعالم فارسي يسمى « نظام الشمس » ليضع منه تاريخاً لحكمه ، مراعيّاً فيه سهولة التعبير مع تجنب المدح والإطراء . وانتهى « نظام الشمس » من عمله سنة ١٤٠٤ م قبل موت تيمورلنك بسنة واحدة . وقد كتبه باللغة الفارسية وسماه « ظننرنامه » أي كتاب النصر . ولا توجد الآن سوى نسخة واحدة منه ، وهي

محفظة بالمتحف البريطاني .

وكتب « على اليزدى » المعروف « بشريف الدين » تاريخاً آخر بالفارسية سماه أيضاً « ظفرنامه » . وواضع هذا التاريخ رافق تيمورلنك في كثير من غزواته ورحلاته وقضى باقي حياته في بلاط ابنه شاه رخ بمدينة هرة في خراسان . ويؤخذ عليه أنه امتدح كل أعمال تيمورلنك وبرر سيئاته بعبارات منمقة جوفاء .

وهناك تاريخ ثالث يسمى « عجائب المقدور في نواب تيمور » وضعه « شهاب الدين أبو محمد أحمد المعروف بابن عرب شاه » وقد كان في خدمة السلطان أحمد الجلايري ببغداد ، ثم انتقل إلى سمرقند . ويمتاز بدقته وحسن أسلوبه ، إلا أنه مملوء بالنقد اللاذع ، الذي يصل أحياناً إلى حد السخرية . وقد ترجم هذا التاريخ إلى الفرنسية سنة ١٦٥٨ م . وقد اتخذت هذه المصادر الثلاث أساساً لتاريخ أخرى وضعها علماء من آسيا وأوربا ، فأصبحت حياة عاهل التتر مدونة واضحة المعالم ، ميسرة لمن يرغب في الوقوف عليها .

والاسم الأصلي لتيمورلنك هو تيمور ومعناه بالتركية الحديد . وحقاً أنه كان صلباً قاسياً كالحديد . وقد أصيب في معركة مع أهل بختستان بسهم في قدمه اليمنى ، سبب فيها عرجاً

مستديماً . وسماه أعداؤه « تيمورى لانج » أى تيمور الأعرج .
وعربت هذه الكلمة إلى تيمورلنك ، وأصبحت علماً عليه .
أما الإفرنج فيسمونه تمرلان Tamer lane ويحذر المؤرخين
أن يسموه باسمه الأصلي . وهذا ما سنتبعه من الآن .

وهو منسوب إلى التتر الذين اذبحوا في المغول في مستهل القرن
الثالث عشر . والتتر والمغول جنسان مختلفان وإن تشابها في بعض
الصفات . وكانت قبائلهما منتشرة على حدود الصين في صحراء
جوبي وسييريا . ولم يكن لهم مقام مستقر . يتبعون المرعى والأرض
الخصبة ، ويميلون بطبيعتهم إلى الارتحال الدائم . وقد اعتادوا
أن يغيروا على البلاد الصينية ، ويعودوا منها بالأسلاب والغنائم .
واضطرت الصين أن تبنى سوراً على حدودها لتصد أذاهم عنها .
ويرجع عهد هذا السور إلى سنة ٢١٤ قبل الميلاد ، حيث
شرع في بنائه الإمبراطور « شى هوانج فى » . وهو مصنوع
من الطوب الكبير الحجم والجرانيت . ويبدأ من ساحل البحر
بقرب بكين ، ويمتد على الحدود مسافة ١٥٠٠ ميل ، متتبعا
تعرجات الأرض الطبيعية ، فيمر فوق السهول ويختار الأنهار
ويهبط في الوديان ويرتفع إلى قمم الجبال . وتتخلله أبراج محصنة
للمحراسة يبعد أحدها عن الآخر بنحو ثلاثين متراً . ويبلغ عرض
حافته العليا خمسة أمتار . ويزيد ارتفاعه في المتوسط على ستة أمتار .



قطاع من سائط الصين العظيم

ويعتبر هذا السور من أروع وأعظم ما صنعته يد الإنسان .
 وكانت مضارب القبائل التتارية أقرب إلى الصين من
 القبائل المغولية ، فأطلق الصينيون اسم التتر على جميع القبائل
 الرحل التي تعيش وراء حدودها . وفيهم التتر والمغول والأتراك وغيرهم .
 وظهر في صحراء جوبي زعيم مغولي يسمى جنجيزخان .
 استطاع أن يضم حوله شتات العشائر المغولية ، وأن يخضع
 التتر لحكمه . ثم غزا الصين وكوريا وأواسط آسيا ، ووصلت
 جيحافله إلى نهري القوبلجا والدون بروسيا . وأطلق الروس اسم
 التتر على أتباعه وعسكره لسبب غير معروف ، وقلدهم
 الأوربيون في هذه التسمية . ويرجح أن مقدمة جيش جنجيزخان
 التي بدأت بغزو روسيا كانت من العناصر التتارية .
 وكان المغول يكرهون أن يسموا بالتتر ، ويعتبرون أنفسهم
 سادة لهم . فالبلاد الخاضعة لهم هي الإمبراطورية المغولية ،
 وعاهلها هو خان المغول الأعظم . وذريته تتولى العرش بعده .
 وقد يحظى التتر بمرتبة الأمراء أو القواد ، ولكنهم لا يرثون العرش .
 وانقلبت الآية في عهد تيمور ، فدان المغول للتتر ،
 واختفوا وراء السنار . وسميت البلاد التي فرض هذا الرجل حكمه
 عليها إمبراطورية التتر . وتوارثها بعده أبناؤه وأحفاده . وتلك
 الأيام ندواها بين الناس .

جنگیز خان

كثيراً ما يرد ذكر جنگيز خان في سيرة تيمور . ويجدر بمن يقرأ هذه السيرة أن يلم بتاريخ تلك الشخصية النادرة المثال . ولو في صورة موجزة ليتيسر له أن يتبع الحوادث التاريخية ويدركها بفهم سليم .

كانت صحراء جوبي الممتدة شمال الصين مرتعاً لقبائل متناثرة من المغول . تعيش على البداوة الأولى ، وتميل إلى الارتحال الدائم . إذا أجذبت أرضها حملت خيامها ومتاعها وسافت ماشيتها وخيولها إلى مكان خصيب . وفي إحدى هذه القبائل ولد جنگيز خان سنة ٥٥٨ هـ - ١١٦٢ م . كان أبوه « يزوكا » زعيماً للقبيلة ، وخرج مع ثغر من رجاله ليغير على قبيلة أخرى معادية له ، وعاد بعد أن أسر زعيمها المسمى « تيموشين » . وعلم أن زوجته قد وضعت غلاماً ، ففاض قلبه سروراً وأخذ يداعب ابنه فأبصر في يده كتلة من الدم متجمدة ، فتفأل بهذه العلامة ، واعتقد أنه أنجب بطلا يقود الجيوش ويشير حرباً شعواء تراق فيها الدماء غزيرة . وأطلق عليه اسم عدوه تيموشين . وهذا المولود هو الذي عرف فيما بعد باسم جنگيز خان .

وشب تيموشين بين أحضان قبيلته ، وعنى أبوه بتدريبه
على الفروسية وروضه على الصبر واحتمال المكاره . وكثيراً
ما كان يستصعبه في غزواته ومغامراته .

رأى وهو في الثالثة عشرة من عمره فتاة لم تبلغ التاسعة ،
تسمى بورتاي ، فأحبها وأراد أن يتزوجها ، وأخبر أباه أنه
لا يطيق الحياة بدونها . وكان أبوها زعيماً لقبيلة مجاورة وصديقاً
حميماً ليزوكا . فقبل أن يصاهر تيموشين ، ولكنه أرجأ الزواج
إلى أن تكبر الفتاة وتستكمل أنوثتها . وذهب تيموشين إلى
خطيبته يحمل إليها هدية متواضعة ، ومكث بضعة أيام ضيفاً
على أبيها . ويشاء القدر أن ينقلب سروره حزناً . إذ جاءه رسول
من والدته يخبره أن أباه مات مسموماً بمكيكة دبرها له أحد
أعدائه ، فبادر بالرحيل إلى قبيلته وقد برح به الهم والألم . ولم
تقف المأساة عند هذا الحد ، لأن رجال القبيلة حزموا أمتعتهم
واستعدوا لمغادرتها متوهمين أن زعيمهم الحديد قليل الخبرة لصغر
سنه ، لا يستطيع أن يقودهم إلى الغزوات التي يفتنون منها
المال والسبايا . ويعجز عن تدبير الدفاع عن القبيلة ضد أعدائها ،
فأولى بهم أن ينضموا إلى زعيم آخر يطمنون إلى قيادته .

وحاول تيموشين أن يستبقيهم معه ، ولكن جهوده ذهبت
هباء ، فشددوا رحالهم منصرفين عنه ، ولم يمكث معه سوى نفر



أطلق نيموشين ماقه لريح

قليل ممن أخلصوا لأبيه .

ولم يستطع تيموشين بعد انحلال قبيلته أن يحتفظ بالأرض التي ورثها عن أبيه . إذ عادت عليه قبيلة معادية . وحوار الفرار هم يفتح ، وقض عليه وقياد بآله تسمى « لكيج » كانت شذعة الاستعمان بين الممول . وهي أشبه نهر ثقيل من الحشب يحيط بالعمق ولكتمين ويوثق اليدين ، فلا يستطيع حاملها تحريكهما . ثم سجن في حصيرة إلى أن يلقى حتفه في صباح اليوم تاني . وتركه معه حارس ليمعه من الفرار .

وعر عن تيموشين أن يحرم نعيم الحياة وهو في ميعه صباه . هم يعض له حفن . ولم تكف عياده عن سكك الدموع . ورأى في هزيع الأخير من الليل حارسه يتشاءب طلباً للنوم . واستجمع قواه وحرك كتفيه حركة عبيته . وهوى على رأس الحارس بصربة قوية من الآلة التي كان مقيداً بها فحرق مغشياً عليه . وأضيق تيموشين ساقبه للريح ، مبتعداً عن مضارب أعدائه . وتنت حلقه فرأى رجالاً يقتنوب أثره . فجد في السير حتى وصل إلى نهر جمد مؤه من شدة البرد . وبالرغم من ثقل القيد الذي كان يحمله ، غاص في الماء المشوح ، وعدم تحت سطحه بأقصى سرعة يهتمها في في سنه . وكان يرفع رأسه فوق الماء بحذر ليستشق الهواء . ولا قطع شوصاً طويلاً بهذا

الجهاد المرهق ، وأيقن أنه ضلل مضارديه ، خرج من لهر واتجه إلى كوخ صغير رآه من بعد ، وما إن وصل إليه . حتى خارت قوه واعتراه إغماء شديد . وما أفاق وجد نفسه محاطاً بأعطية ثقيبة بعثت في حسمه الدفء . وقد أربل عنه القيد . ورأى أممه رحلاً طاعماً في الس ف شكره على عطفه ومروءته وروى له قصته . فاعرورقت عينا الشيخ بالدموع وهماً تيموشين على شجاعته وجراته مع صعر سنه . ثم أعطاه فرساً ونصحته أن يغادر الكوخ قبل أن يكشف أحد أمره .

وكان هذه المأسى التي فجع بها تيموشين أبلغ لأثر في نفسيته . فهو لم يقترف ذنباً ولم يسيئ إلى أحد . ومع هذا فقد توالى عليه الخطوب وكاد يفقد حياته . لولا توقد دهنه وقوة احتماله وبسمة صادفته من الخط . وقد استهن بعد ذلك بأرواح الناس فلم يقيم لها ورناً .

ونحث تيموشين عن أمه حتى وحدها مع نفر قليل من أنصاره الذين صوا على وفائهم له . وفكر في أن يلجأ إلى والد خطيبته ويعيش تحت كنفه . ولكن كبرياءه أبى عليه أن يصهر أمام حبيبته مستضعفاً مهيناً . فوطد عزمه على أن يكفح حتى يستعيد ما فقد من ملك أبيه . وبدأ حياته بالحديدة بقصع الطريق على المساهرين والإغرة على الثموفس . مستعيناً بأعوانه

القبائلين . وقد هيئ له الثور في معامراته لسانته واستهتره بالحياة
وحسن قيادته لأتباعه . فأنضم إليه الرجال ثماناً . وابتاع السبعة
عشرة من عمره كان قد اجتمع له جيش صغير فسار على رأسه
ضد أعدائه . وانتزع منهم أرض أبيه . وعلبهم على أمرهم
ووطد مركزه في ملكه متواضع . فأصبح زعيماً مهيباً تحشى
بأسه القبائل الأخرى .

وم ينس تيموشين في هذه السنوات الأربع تلك الفتاة التي
سنت إليه . فسار إليها في موكب حربي عظيم . واستقبله
والدها بمظهر الفرح والترحاب . وهذه بأعماله مجيدة . وأقدم
معلم الروح في حسن رافع . وعاد تيموشين بروحته إلى مصارب
قبيته . وقد امتلأ قلبه بشراً وسروراً .

وبدأ الظهور الثاني من حياة تيموشين . فأخذ يعير على
القبائل المخدرة ويرغمها على الانضمام إليه والخصوع لحكمه .
ثم توسع في أعماله الحربية . ففش هجوماً على القبائل النائية
فلم تستطع مقاومتها وصطرت أن تدين له بالطاعة . وواصل هذه
الخطوة حتى أصبحت الأرض الواقعة تحت نفوذه ممتدة من
نخيرة ريكل إلى جبال كسحان على حدود مشوكو الحالية .
واعترفت له بالسيادة جميع قبائل المعولية والتيرية .

وبلع تيموشين الثانية والأربعين من عمره . فألقى بجانبه

جيشاً حراً زحراً بالرجال والعتاد . فاعتزم أن يخرج من الأرض المحمية إلى الحصص وعمارات . وجمع رؤساء القبائل ونادى بنفسه أمير طوراً باسم حميرخان . « وحمير » كلمة معوية معناها المحارب الكامل . أما كلمة حول فمختصرة من خاقان التي كانت تطلق على الملوك بين قبائل المغول والأتراك .

وهنا بدأ الطور الثالث من حياة عاهل مغول . فبرز في العالم المتمرد قاصد عزوه واستعباده . وشس عليه حرباً شعواء لا عهد للإنسانية مثنها . وكانت به ثلاث وسائل لا يجيد عنها : القتل وسبي والتخريب . إذا سر ترك وراءه أرضاً قاحلة لا نت فيها . ومبدأً مهادمة من أساسها . وحشاً هادمة تعطي ديم الأرض . اجتاحت بلاد الصين حتى -هر سيبكانج - وتوجه عرباً فغر خوارزم وخرى وسمرقند وبيسبور ودرينجان واستراخان . ووصلت حدة إلى نهر الدون في روسيا .

ولتقى في خوارزم بجيش قوامه ٤٠٠,٠٠٠ رجل . فقتل منهم مائة وستين ألفاً . وأكره الدقيق على الفرار . ولما دخل ندرى وقف بباب لمسجد وقال بلجوده « لقد قطع الخليج فأضعوا حيولكم » فانصرفوا لسلب والنهب وهنك لأعرض . ثم شعلوا النار في المدينة . وقاومته بيسبور بصعده أيام فكان جرؤها دبح رجالها وسبي أطفالها .

ووصل جنحيزخان فتوحته إلى أن أصبح سيداً على
خمس المكة لأرضية . وامتدت إمبراطوريته من أرمينيا غرباً
إلى كوريا شرقاً . ومن هضبة التبت جنوباً إلى نهر الفوخا
شمالاً .

وبدأ بعد خمسة وأستين من عمره أصيب بمرض عصال
ومت على الأثر . وحملت جثته إلى واد على ضفاف نهر
الكيرولين ودفنت هناك .

وورث الملك بعده ابنه أوحداى خان واتخذ مدينة
كركورم بمغوليا عاصمة له . وكان قائداً ماهراً ذا خبرة واسعة
بتصميم جيوش وتبوير الخطط الحربية . استطاع أن يغزو
أجزاء من الإمبراطورية الصينية . ثم قد جيوشه إلى
أروسيا سنة ٦٣٣ هـ - ١٢٣٥ م فاكتملها وحمل منها ولاية
مغولية . وانحدر إلى بولندا فخرّبها واحتل الحجر بعد أن مثل
بأهلها أشنع تمثيل .

ومت أوحداى فجأة سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م وقام نزع
على ورثة العرش . وضطر المغول أن يرحلوا من أورب قابعين
بولايتهم الأسيوية . واستولى على العرش مانحو خان سنة
٦٤٩ هـ - ١٢٥١ م فولى أخاه قبلاى خان إمبراطوراً على
الصين . وسير أخوه الثانى هولوكو ليغزو غرب آسيا . وكان

هـ. عدواً ميباً للإسلام . ففتح بلاد اعرس وسورية . وهزم
 بغداد ليفضي على خلافة الإسلامية . وقتل معصم سكر ٢٠
 ثم هبط إلى فلسطين قصد مصر . ولكن المصريين هزموه سنة
 ٦٥٩ هـ - ١٢٦٠ م وردوا حيثه ونقدوا العالم الإسلامي من
 شروره .

وعقب هذه الخزيمة توقف تيار الفتوحات المغولية .
 وانقسمت الإمبراطورية إلى أجزاء يحكم كل منها حان مستقل .
 وتبع انقسامها في الحكم انقسامها في الدين . فالمغول القاطنون
 في شرق آسيا اعتنقوا البوذية . والمقيمون منهم في أوسط آسيا
 وغربها دخلوا الإسلام .

وفي سنة ٧٧٠ هـ - ١٣٦٨ م استطاع الصينيون أن يصدروا
 المغول من بلادهم . وطلت الحال كذلك إلى أن صهر تيمور .

نشأة تيمور

ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ - ١٣٣٦ م ميلادية . في مدينة صغيرة تسمى « كاش » . وهي تقع جنوب سمرقند بحوالي ٥٠ ميلاً . وكان يحلو لسكانها أن يسموها « شاري سايز » أي المدينة الخضراء .

وكان أبوه صرعى شجاعاً محبوباً في قبيلة ليرلاس لتغرية . مترد لتقوى ولقداسة والرهدة في متاع الدنيا . لا يشعنه إلا التحدث مع رجال الدين وحاصه من حجاج مهم مكة وزار مقدم لبي . وشب تيمور بين أطفال قبيلته يتهو ويلعب معهم . إلا أنه كان رزياً كالصود . لا يحب إلى الجوب . فلم يعرف عنه أنه صحت مرة أو أن شفتيه انفرحتا عن ابتسامة . وكان نشاطه في اللعب مقصوراً على تقيد المعارك الحربية من محوم أو دفاع أو حصار . وكان دائماً هو القائد لأقرنه في اللعب .

تعلم من صغره ركوب الخيل . واستعمال القوس والسيف . وتدريب على صيد الطير والوحش . فشب حزيناً قوى البنية . ومن مهوره المحبوبة الشطرنج واسولو . وكثيراً ما كان يقرأ القرآن .



مصور تقریبی للمواقع شهیره سی و د د کرمه فی هذه النقصه

«ت أمه وهو صغير . وعترل أبوه العلم وأقام في صومعة
يتعد ٣ . وناودع سد قل له : « إلى رأيت الدنيا أشبه بكأس
دهنية مملوءة بالنعمة رب والتعابين . فرهدت فيها : وأنصحتك
يا بني أن تدعم نفسك بأشوس المدين الأربع . وهي الصلاة
والصيام والحب والبركة . واحترم علماء الدين . واطلب منهم
البركة والنصيحة »

وكانت قبيلة البرلاس تقيم في ود خصب ترعى فيه
ماشيتها . وتسمى زرعها . تحصص ملوك المعول ويحكمها عنهم
إد ذلك رعيم من أهلها يسمى حاحي برلاس وهو عم تيمور .
وقد ساءت أحوال القبيلة في عهده ودب فيها الفساد واختل
الأمن وكان يخشى تيمور ويسعى به الطر ويغضه . فهجر
تيمور بسده ورحل إلى « ساي سراي » حيث بقيم كزحد أمير
سمرقند من قبل معوب . واستنصه بالترحاب وسمح له بالإقامة مع
حاشيته . إد كان يعرف أنه من أسرة عريقة . كان منها
القواد اعظم أيام حبيب خان .

وكان تيمور إد ذلك قد سح الحقيقة الثانية من عمره .
قوى الجسم . واسع الصدر . عالى الكتفين . كبير الرأس .
عريض الحيين . أسود شعر الشارب والحية . وجهه ذو عظم
كبير درر كأمرد حنسه . وعينه سوداوان تنصرا بخدة وثبات .



تیمور قیٰ خمیسین من عمره

دلالة على قوة الشخصية وثقة النفس .

وقد حدث في أحد الأيام أن أعاد جماعه من الفرس على الحدود العربية ، وعادوا بأسلاب كثيرة . وراى كرجح أن يختار شجاعه تيمور . فأمره أن يتعقب النصوص ويستعيد ما سلبوه . واعتبط هذه الفرصة التي سنحت له ليظهر فيها بسلته وقوة بأسه ويستصحب معه ثمر قليلا من خند . وحل في أثر النصوص حتى عثر عليهم بعد نصف ساعات . ودرت بية وبينهم معركة حامية . وأصيبوا بهزيمة منكرة . وهربو مدعوزين . واستول تيمور على خيول التي كانت تحمل الأسلاب وعددها إلى كرجح . فأمر أن ترد الأموال والأمتعة إلى أصحابها . وودح تيمور وأهدى إليه قوسه الخاصة ، عجباً به وتقديراً لشهامته .

وفكر كرجح في أن يروح تيموراً واحداً له حفيده . وهي فتاة بارعة الحمام تسمى « أختى » من الأسرة الحاكمة لقبيلة الخلابر . التي كانت مضاربها في حواريهم . وجاءت العروس مع خدمها وحواريها وثروتها من ذهب وحواهر . وعقد الزواج . وأقام كرجح هذه المناسة حفلاً رائعاً ورع فيه الصدقات والهدايا على الخاشية والحمد والعناء . وأعد الولائم الفاخرة لخموع زاخرة من أفراد الشعب .

ونداش تيمور مع روحته معتطاً بما لسه فيها من حب ووفاء
مديدين . وقد بتى فامرلا متوصعاً في بيته ، حيث لأرض
والمرعى ولماشية التي تركها له نوه .

ولما بلغ الرابعة والعشرين . عينه كرحان قشداً لألف
جدي . ومثلاً قلبه فرحاً بهذا انصب انخضر . وع من حده
باروق . وكد يعنى بتدبير شؤونهم في المأكول والملبس ومسكن .
وكثيراً ما كان يستصحب معه نفر منهم عدهم يرور روحته
في امسه انخضر . ويقدم لهم ما لد وطب من ألوان لضعف
ووضعت روحته علاماً فساة « حاششخير » أى تقبض
على العالم .

واسنعل كرحان شعاعة تيمور وجرأته . فغز بعض البلاد
الواقعة جنوى مهر آمو (ويسمى الآن جيحوب) واحتل مدينة
هيرة . وأسر أميرها « مالک » وحمله إلى ساسى سرى .
واجنمع أمراء سمرقند . وصدوا من كرحان أن يقتل لأسير
ويورع أملاكه عليهم . لأنه كان د ثروة طائفة وانكى
كرحان رفض ديث . وتعاضى عن مراقبة لأسير فسر إلى بلده .
ولد عيم الأمراء بدئت عضوا وبيتوا أمرهم على قتل كرحان .
وتربص منهم ثمان في عدة كان يتردد عليها بصيدا . وقتلاه
رمياً بالسهم ولذا بالقرار . وجرن تيمور موت الرجل الذي رعه

وحده وأكرمه . وجمع فريقاً من الجند وساروا في أثر القاتلين ،

حتى قبض عليهم وهلك هما

وقد ابرأ بين قبائل التتر على من يتولى الحكم في

سمرقند . وأعد كل أمير عدته ليقضي على منافسيه . وتشتت

الموصى واضطر تيمور أن يعود إلى بلاده . ونسعه إليها بعض

مئات من الجند . ولم يكده يصل إليها حتى فوجيء بموت أبيه .

قدوم الخان

سمع صُغْتُك حان عهد المغول ، الثورة القائمة في سمرقند .
 فأقبل من الشمال ليقصى عيها . وضعك هذا من أحماد
 جيجرخان . وكان ملكه يشمل سيبيريا العربية وأوسط آسيب .
 ولكنه لم يحصل بإدارته وتصميم شئونه وانصرف إلى الاهتمام في
 الملذات . وترك البلاد حكام يصرفون أمورها باسمه . وكان
 مركز الحاكم مزعزعا في بيده أو ولايته . فقد يعتصب منه
 الحاكم زعيم أقوى منه ولا ضير عليه في ذلك إذ اعترف بخصومه
 لطغتك خان .

وكان هناك عهد بين المغول والتتر تسعوه بعد حنحيزخان
 ولم يشدوا عنه . وهو أن تكون ولاية ملك لأحماد حنحيزخان
 من المغول . أما التتر فلا يكونون إلا حكاماً أو قواداً في
 الجيش . وما دام هذا العهد قائماً فلا مطمع لرجل كتيemor
 إلا في أحد هذين المراكز .

أقبل طغتك بجيش جرار يبغي قمع الثورة و يضعف شوكة
 الأمراء ورعاء القبايل . وتولية حكام يديون له بالصدقة .
 ثم العودة بما يستطيع أن يجمعه من كوز وعثمان وأسلاب .

وضضرب ثمره الشر ورعدوهم . ففهم من فر واحتفى .
 ومهم من مثل بين يدي الحد وأقسم يمين لصدة واحصوع .
 وقد له اعداى ثمنية ولأمور اعدالة . وحر ح الأمير حسين
 أخو الحى روح تيمور عن طاعة المعول . وأقل من كبر
 نجيش من الأعداء . ولكه هره وضضر أن يقر وينجو نحيته .
 أما حاحى برلاس عم تيمور ورعه قيلته . فقد اعتره لا يدع
 بثوة . وستعد لته ومه الحد . ولكن تيمور لم يصم إليه اعتقداً
 مه . ثم ومه لا تجدى نفعاً . وأن مصبره من اهريمة ودمار .
 وصبع الأروح بعير حدى .

وعصب مه حاحى برلاس وأراد أن ينتهز هذه الفرصة
 ينقصى على حياته . لأنه رأى فيه موقفاً عيذاً صلب البرس .
 فدهاه إن ونه . فلى الدعوة مطمئناً . ولكه رأى العدر فى
 عين الحيطين به . ويقت أن مكيدة دبرت لقتله . ففر بحيلة
 بتكره وبع بنفسه . وقد آله أن يقدم عمه على ارتكاب هذه
 الجريمة الشائنة .

وظهرت صلائع جيش المعول فى أفق المدينة الخضراء تعطى
 المسهل ونملاً انصاء بصجيجها وصحبها . ففرع حاحى برلاس
 وأدرك أنه أخطأ فى الخروح على الحد . وأيقن أنه عاخر عن
 الوقوف أمامه . فلم يجد ماصاً من الفرار . وجمع الخاربين من

قبيلته وعداد المدينة المحصرة متحهاً نحو الخوف في صريق هراة ،
واكنه لم يعيش طويلاً . إذ نرى له جماعة من قصاع الطريق .
وسلوا ما معه من مال ومتاع وقتلوه .

وبقي تيمور في بلده ومعه أربعون جندياً من أحمود وأحمصوا
له ، ولم يريدوا أن يتحوا عنه في هذه الظروف العصيبة . وأحد
بصكر في الموسيقى التي تكمن لحة مدينة المحصرة من بعض
المعوب . وتذكر وصية أبيه بأن يطلب النصيحة من رجال الدين .
فذهب إلى شيوخهم « ريس الدين » ومكث معه ليلة كاملة .
اتفق فيها على لحظة نتي بسدكها . وأصبح تيمور فجمع كل
ما يملك من فضة وذهب وحواهر ليستعين بها على تنفيد مآربه .
وقد أمله ريس الدين بما يملك من مال .

وفجأة طهر في مدينة ضابط من المعوب قدم من سمرقند مع
شردمة من الحيد لاستكشاف الطريق . واستلمه تيمور وحتى
به وأكرمه وودته . وأعد له وليمة فاخرة ، وميحه بعض الهدايا
الثمينة . فقصها مسروراً . وحرم على أحمود أن يمسوا المدينة
بأدى ثم قدم له هدية أخرى . وضبط منه أن يساعده على
المنول بين يدي الحاد . فوعده بتحقيق هذه الرغبة في الحال .
فجمع تيمور بعض ثناعه وأعطى كلا منهم ثوباً فاخراً وحواداً
أصيلاً وعدة حربية كاملة . تشتمل على درع وحمولة وسيف

وقوس وسهم . وحمل معه كل ما يملك من مان وسار مع الضابط
في رتل حري مهيب . وثى سمرقند اعترضه ضابط من حرس
الحرب . ولم يسمح له بالمرور إلى السراشق منكى . واضطر
أن يقدم لكل منهم هدية . فأحلب له ولأشاعه الطريق .
وسهلا له سبيل لشول بين يدي العادل العصيم . وهما لم تخذه
شجاعته فحيا الحرب بحية لموتك . وقدم له فروض الطاعة
وأولاء وقاد به تيمور رعيم البرلاس في من لمدينة الحصراء
لبضع كل ثروته بين قدمي مولاه . دليلا على إحلاصه ووفائه .
وسر الخون من شجاعته ولدقته وأبدى دهشته من أن يتقدم إليه
رعيم صغير مثل هذا من الوفير . وقال : ما أظن أنك حشرت
شيئا لنفسك . قل : كلا يا مولاي . قل : أعتقد أنك
صادق . ثم أمره أن يبقى في حاشيته إلى أن يعود إلى عاصمته .
وبذا هدأت الثورة وحصع أمراء التتر ورمؤهم لسلطان
المعرب . أقام طعلك خور الله إلياس حاكما عما على ولايات
التتر . ومعه جيش يتقوده رجل فظ عنيف غليظ القلب يسمى
بيكيچوك . ثم نعم على تيمور بقلب أمير سمرقند . على أن يظل
خاضعا لدود إلياس وقائد جيشه . ورجل أحن بعد ذلك إلى
عاصمته في الشمال .

تيمور الثائر

لم يعتبض تيمور بلقب لإمارة الذي لا يحمل سوى الاسم .
ولا يمنحه الحرية في العمل . فعد إلى بلده مترقياً ما تتمحض
عنه الحوادث .

وسار القائد بيكيحوك سيرة سيئة . فارتكب المصالم
والمساءات . واعتصب أموال الناس ، واستولى على عدد كبير
من فتيات سمرقند الجميلات . وأرسلهن إلى أمراء الممولى مسعياً
أمن سديا حرب . وعلى إثر هذا الحدث فرغ سماء الدين
وثر غضبهم وعلى رأسهم شيخهم زين الدين . واحتج تيمور
لدى الحاكم العام طالباً منه أن يرد المقتيات إلى بيوتهم . ولكنه
لم يجد منه نصيراً . فجمع فريقاً من أتباعه وسر في أثر القافلة
التي تحمل المقتيات حتى لحق بها . وقتل حرسها وأصق سراح
الأميرات .

وكتب إلياس إلى أبيه صعلك يخبره أن تيمور حرج عن
طاعته . فأرسل إليه يأمره بقتله . وسلم تيمور إلى دير به . فم
ير بدأ من الفرار واختفاء في الصحراء . وحمل معه زوجته
الأمينة وطفله الصغير . وما تبقى له من ثروة . وصم إليه

عشرون من نصاره الأوفياء حيوفهم وعدتهم الحربية .

توصل تيمور في الصحراء مستعداً عن سمرقند . واتجه نحو الغرب قصد مدينة حيوة على مفر الآمو . وفي الطريق التقى بالأمر حسين شقيق زوجته وكان صريداً منه هدم في الصحراء مع زوجته دلشاد وأربعين من أتباعه المخلصين . وقد جمعت لصوص القاسية بين هذين الثريدين . فاعترفا أن يشتا لئلا يستسلما للصوم والمهانة .

وصل تيمور ومن معه إلى حيوة بأمان . ولكن إقامته لم تطل فيها لأن حاكمها فكر في أن يأسره مع الأمير حسين وبيعهما للمعول . وأحس تيمور بالخطر فعدد المدينة مسرعاً مع رفدائه . ونهض الحاكم ووضع مشد من جنوده . واشتد العريقان في معركة حامية هوت فيها الرؤوس من الجانبين . وأبى الأمير حسين بلاء حسناً اندفع بفرسه نحو الحاكم وقتل نصر من المحيطين به . ولكن أعداءه تكاثروا عليه وكادوا يفتنونه ، لولا أن تداركه تيمور ونجاه مهم . فأخذ يحوم بفرسه في الميدان ويضرب أعداءه بسيقه على الحاسين . وأصيبت فرسه بسهم فهوت على الأرض . وفي حصة كالمع النصر كانت زوجته دلشاد تحده على فرسها ، فمتصفاً معها ونجا للمرة الثانية . واكمه عاد لثبات بحماسة أشد من قبل . وكان تيمور

شديد الفتك بالأعداء . ولكنه خشي أن يتموقوا عليه بكثرة عددهم . فوطد عزمه على قتل الحاكم . ورماه بسهم أصابه في فمه . ثم وجر جوده . فأخذ ينهب به لأرض ومر كالرق الحافظ على الحاكم والمحيطين به . وصوب نحوه حرية لم تخطئه وقصت على حياته . ودب لدعر في اسقية البقية من الأعداء ، فلاذوا بالفرار .

وتفقد تيمور أتباعه فلم يجد منهم سوى سبعة . أما الآخرون فقد ضحوا بأنفسهم في القتال .

واتفق تيمور وحسين على أن يفترقا لكيلا يكشف أحد سرهما . وأن يستقيا بعد ذلك في بقعة حجازها في الجنوب موطن الأمير حسين . واقتسما الحين الناقية بينهما . وكانت أربعة فقط نال كل فريق منهما اثنين . فحمل تيمور متاعه على أحدهما وأعطى الآخر لزوجته وطفلها . واكتفى هو بالسير على قدميه . وصرب في الصحراء اثني عشر يوماً . يأكل من الطير الذي يصطده . ويحفر الأرض ليحصل على الماء . ويتوسد الثرى إذا طيب النوم . وكانت سنوته الوحيدة في هذه الرحلة الشاقة زوجته الوفية . تواسبه في كربه وتقوى عزيمته . ونزىل حزنه بابتسامتها الجذابة وحديثها العذب .

ومر تيمور بقبيلة فارسية عرفه شيخها اسمى « على سح »

فأمر رجاله بالقبض عليه . فأكثروا عليه واعتقلوه وحسوه مع زوجته وابنه في حاصرة له شبة . ووضعوا حولها حراساً أقوياء .
 وور عليه شهران وهو على هذه حال . وكان لشيخ القبيلة أخ
 قوى المود يحكم قبيلة أخرى محورة . علم بما وقع لتيغور .
 ف أرسل لأخيه بمصحه . إذ يتدحرج بين المعوب وأمير المدينة
 الحضراء . فاستمع الشيخ للشيخ وأحاط سرح أسيره .

وأصل تيغور لسير حتى اقرب من سمرقند . وأخفى زوجته
 في قرية قريبة منها عند أحد أصدقائه . ثم تسال إلى المدينة
 ليتعرف أحوالها . ومكث بها خمسين يوماً يتردد خفيه على بيوت
 النثر . ويستنصت لهم على التقياء بثورة لطارد المعوب . وأكثروا
 الانتصار لأن أعداءهم كانوا يدرك في معنة من القوة والعدد
 فعاد إلى زوجته . وأعد عدته للرحيل إلى الجنوب من اتحد المدينة
 كابل ليلتقي بالأمير حسين . وقد تبعه جمع كبير من النثر الذين
 يعشمون الحرية ويجوب الكفاح .

وقصع تيغور مع جيشه الصغير حسمته ميل . في حو
 عاصف وبرد قارس . حتى اجتاز « كابل » فوجد الأمير
 حسيماً يتصاهه . ومعه جيش من أنصاره .

تيمور الأعرج

في هذه الوقت ثار أهل تخستان على أميرهم فارس يستعبد
تيمور ولأمر حسين . فساعده على إخماد الثورة . ولكن
لأمر حسين اعتدى على بعض المدن والقرى . وسب مؤلف
روى عليه حكماً من رحاله . فصاح الأهل بالشكوى .
فبعضوا أميرهم . وطسوا منه أن يتعاون معهم على طرد التتر
من بلادهم . فلبى دعوتهم وقامت حرب بين الترياقين هزم
فيهم أهل تخستان . وأصبحت بلادهم خاضعة لتيمور ولأمر
حسين

وحدث في إحدى المعارك أن أصيب تيمور بسهم في
يده وآخر في قدمه ليمنى . واضطر أن يلازم القرش مدة من
الزمن . وقد اندمل الخرحا ولكن قدمه لم تستعد حركتها
العادية . فكان يعرج بها طول حياته . ولذلك سمى أعداؤه
تيمور الأعرج .

وكان الأمير حسين قد رحل إلى لشهان مع ابخانب الأكبر
من الجيش والأنواع للحد . وحشى تيمور أن يسدع الأمير
تهوره في محاربت نحره . في اهلاك . فصمم على أن يلحق به

مع القبة الماقية من الحيش . وودع روحته فكاد قلبها يذوب حزناً .
ولكنها تجللت بالصبر وأحمت نفثات صدرها السكون .
وومت بنفسها فألبسته درعه . وقلدته سيفه وراففته حتى امنطى
جواده ، وظلت ترمقه بنظرها إلى أن طواه الأفق . وعادت
وهي تقول : اللهم احفظ روحي .

وصدق ما توقعه تيمور . فإن الأمير حسيناً هاجم المغول فهزموه
وبددوا جيشه وصطر أن يعود إلى حداد كابل ليجمع جيشاً آخر .
ووصل تيمور إلى نهر الآمو . وأرسل بعض الكشافه
ليتعرفوا أحواب البلاد . فعدوا قائدين إلى بيكيچوك يسير في
جيش عدته عشرون ألفاً . ينشر لرعب بين الأهالي ويسلب
مواشيهم . وحرث تيمور لما يقاسيه أكثر من ظم وعبودية ، وعقد
النية على أن يخاطر في محاربة المغول بالرغم من أن أتباعه لم
يريدوا على أربعة آلاف رجل .

وعزم بيكيچوك بقدوم تيمور . فأقبل مسرعاً من الشمال
بحو نهر يمتع تيمور من عذره وورع جيشه على ضفته .
وأدرك تيمور أنه لا يستطيع احتياز النهر في مواجهة هذه القوة .
فتحرك إلى أعلى النهر حتى وصل إلى مخاضة صغيرة . وانتظر
هناك بضعة أيام . فحين إلى بيكيچوك أنه سيفزع في مكانه
مدافعاً لا مهاجماً .

وفى ليلة صماء ، تسلم نيمور حصية عبر النهر مع الحارب
 الأكبر من جيشه فى حمعات صغيرة . الوحدة تلو لأخرى .
 وأمرهم أن يسيروا جلسة إلى موقع معينة فى التلال الممتدة وراء
 جيش المغول . وترك خمسمائة رجل عند الحصية ليحاولوا دون
 احتياز الأعداء له . وقبل أن يستق الثغر سيقط بيكيحوك
 منزعجاً على أثر ضجة وصياح ، وسأل عن الخبر فقبل له أن
 يربو شديدة تشتعل وراء الجيش من كل جانب . فأبصر
 أن نيمور اجتاز النهر برحله . وكان وثقاً أن انتثر سيبصمون
 إليه . فلم يشكر فى المدومة وأثر الرجيل مع جيشه . ولكن
 نيمور تعقبه وأسره بعد أن أوقع بجيشه هزيمة مكررة .

وكان الأمير إلياس فى هذا الوقت منهمكاً بالصيد فى
 السهول الشمالية وسمع بموت أبيه فادرك بالرجيل إلى العاصمة
 « أمالك » ليتولى عرش المغول .

وانجته نيمور بتريق من أخذ إلى المدينة المحصنة . وتمنع
 حاكمها المغولى بذلك فقرر منها مع حاميتها .

وبهذا أصبحت البلاد الواقعة بين نهري الآمو والسير
 « جيجون وسيحون » خالية من العدو حاضرة لأهلها انتثر .
 وكانت هذه البلاد تسمى من قبل « ما وراء النهر » .

وعاد الأمير حسين من الجنوب بجموع جديدة من أتباعه .

وعزز بها جيش التتر .

وجمع تيمور رعماء شتر ووقف بينهم ورأى لخلافات التي
كانت سبأ في تدريغهم . وورع عليهم معظم الأسلاب التي
أحدها من المعول . ودفع تعويصت عن موتى من الحمد .

ثم أعد وثبة ليكيحوك والصداء أسروا معه وشكرهم
على خلاصهم لأمرهم . ليس . ثم سألهم ما تصوب أني فعل
بكم . قدو أنت حر فيما تشعل . إن فنتت أعصت فوما .
وإن أضمت سرحد أحوث . قد ادهو فأنتم طلقاء .

وعصت الأمير حسين من تيمور لما يصهره من لين مع
ضباط معون . وعدت منه ضعفاً . وكب يريد أن يقتلهم
جميعاً . ففان تيمور . لقد أسرنهم بنمسي . ومن حق أن أقرر
مصيرهم . وكب هده سداً لراح بين الاثنين .

خلاف وفراق

١. استتب الأمر للأمة ، أيسر في بلاده وأصبح حرباً عظيم
على دعوى دحيش كثير كله من حرسه لأشياء مـريين
على خروج . وذهب تيمور ملاقاته وقد وضع نفسه قديماً
ميسرة الجيش . وعهد بمهمة للأمير حسين . والتقى لمعول
والثغر في يوم عرس . ثارت فيه عاصف الصبيغة وقامت رويعة
هوجاء . حصف فيها لُرق ووصف رعب . وحصل لظفر عمرير
فجعل ميدان القتال حياً من الصبي . حاضرت هم الحيل تشقة
والتحم حشون في عراك مرير . وتمكن تيمور من أن يرد ميمسه
الدعوى . وأحدو يستحون فامه . فترك رحله بتعنه وهم وسر
بالاحتياطي من جنده استند إلى الميدان . فوجد الأمر حسيماً
مهروماً . وقد انسحب ليعيد تنظيم جنده . فهجم تيمور
على ميسرة العدو . واستطاع أن يردده . وأرسل إلى الأمير
حسين يستحثه على التعجيل بنجده ، فغضب ولطم الرسول
على وجهه قائلاً « يُخسر تيمور أن يصدر إلى أمراً أمه رحن » .
وعد تيمور فارس إيه اثنين من قربه قتلين إلى العدو بدأ
يتقهقر ويبغى شهر هذه الفرصة لمواصلة القتال بأكثر عدد

من الجند قبل أن يطمعوا صنفه ويعود للهجوم . ولكنه
 تولى مدعي أن جمع شتات جيشه واهجوم به يحتاجان لفترة
 من الزمن . ورأى العدو أن الأمير حسيناً محمياً عن القتل .
 فشددت سريلته وكر رجلاً . وشن هجوماً عبقاً على طول
 حمة القتل . وعجز ييمور عن أن يصده أو يقف له . فأثر
 الانسحاب وجمع شتات رحله من قتلى البرلاس وعدد من بلده
 حريباً معلوماً على أمره . وكنت بانتظاره فاجعة أئمة فإن
 زوجته التي كان يرحو بقرها الغراء والنسلية واحتمل الصبر على
 ماكره أصيبت تمرص عصاب لم يثمر فيه علاج . ولم يشع له
 طبيب فماتت على الأثر .

ولم ييمور الصمت ولعلته عن الناس . وكان بقصى
 وقته في الصلاة وتلاوة القرآن . ويتسلى بلمعة الشطرنج .
 حملاً على صدره أنه الذي لم ينجور الخامسة من عمره . وقد
 صنع رقعة للشطرنج بها ضعف المربعات . وعليها ضعف عدد
 القضع . وأحد يلهو بخ المشكالات التي تنشأ من بعض مواقعها .
 ويسم الأمير حسين على ما أظهره من كبرياء وعنت .
 وأرسل إلى ييمور يطلب منه أن يرافقه في الرحيل إلى الهند فرأى
 من المعول . فأحبه ييمور . إن الصلة الرحيمة التي كانت تربطهما
 ضمها القدر . فليذهب حيث يشاء . أما هو فسينق بقرها .

وسار المعون نحو سمرقند لامتلاكها . فوجدوا أبوابها موصدة
 أمامهم ، وأهلها مستعدين للدفاع عنها . وفي مقدمتهم اعمام
 ورحل الدين الدين بثوا فيهم لحماسة وأثرو فيهم اربعة اصدقة
 في طرد الغاصب .

وحاول الأعداء أن يدخروا المدينة عموة مرة بعد أخرى ،
 ولكنهم ردوا عنها خاسرين . ويشاء القدر أن تصاب جيوشهم
 بطاعون فتك أودى بها عددا . ولم يبق منها إلا عدد ضئيل .
 وأصبح جيشهم كله من المشاة وعجزاً عن مقاومة الخيالة من
 التتر . ففرضوا ناهزيمة ورحلوا عن البلاد . وأحجم أهل سمرقند
 عن مطاردتهم خشية أن تصاب حيولهم بالوباء

التقسيم التتر

عمر الأمير حسين بن رار دعوى فداء لجيشه إلى سمرقند وقام
 نفسه حاكماً عليها . وفر تيمور هذا موضع حسناً لنزع .
 ولأنه يعلم أن كرجان حاكم سمرقند متوفى هو جد الأمير
 حسين . فمن حق حميد أن يرث الحكم عنه . ولكن تيمور
 أصر على أن يسنون على ياسته مع أرضها الخاصة . فرضى
 الأمير بذلك . على أن تفرص حميد على كل فرد من قتل
 إمراس . فجمعها تيمور عنهم . وحضر أن يصحى في سبيل
 جمعها بجواهر زوجته . وعرف الأمير أنهم كانت ملكاً لأخته .
 ولكنه لم يتورع عن تسليمها .

وحيال سمرقند أصبح الأمير حسين حاكماً على البلاد
 الواقعة بين هند وخراسان (سبى يسخى الآن خيرة خورزم) .
 وبين حكمها وتهدم . جحد وبصايد بسوق عنها . وسلك في
 حكمه ضرب من العنف والشدوة . واعتصب أموال الناس بالصرائب
 القادحة . واعتصب بعض الأمراء والعلماء الذين شقوا عليه
 عبء الصلوة . وتقسيم التتر إلى فرقتين أحدهما يداصره والآخر

بعديده . وقامت بين الفريقين حرب شعواء صلب مستعرة ست سنوات . وكان تيمور فيها أقوى خصم للأمير حسين . استطاع أن يقتصع منه بدءاً بعد آخر . بسعة حيلته واستسارته في القتل واستهتاره بالموت وحسن قيادته لأنصاره . حتى أصبح في أعين الثر بطلا لا يخزي . وقائداً لا يعلب . وداع ذكره في البلاد وماقته القوافل في أحاديث السمر

وكان استيلائه على مدينته كاشي بكورة أمهاله الحبيدة . وهي واقعة حموي شرقية وعرفى المدينته الحضرية . وتمتد لخصم مبيع . ويحيط بها سور عال وحديق مملوء ببدء ويتون الدفاع عنها رجال من أنصار الأمير حسين يسحق الأمير موسى . ومعه ثلاثة آلاف حدى .

ضرب تيمور خيامه على مقربة من كاشي . وستاعى أتباعه الذين لم يلبعوا إذ ذلك سوى مائتين وأربعين رجلاً . وأخبرهم أنه يريد الاستيلاء على المدينة . فتهتوا ونهضوا أنه يداعهم على غير عهدهم به . ولكنهم أحسوا أنه حاد لا هازب . فقالوا . ليس من الحكمة أن نجرف بأرواحنا أمام هذا حصن وحراسه الذين يريدون على عشرة أمثالنا . وهم مسؤولنا في الخيم . إذ أصيب مكروه وقعن في الأسر ولحقنا العار إلى الأبد . فأوى به أن يستطرد أن يصاعف قوت أنصار حدد .

فصحن القور في القتال . وأن موقفه هذا لا تحدى فيه العجة
ولا يثمر لاندفع . وحير وسينة لما هي الصبر مع الحذر .
ولم يشأ تيمور أن يجادهم بعد استماعه لأقوالهم . واكتفى بأن
نشار إلى الحيام قتلاً : اذهبوا إلى حريمكم ولرموا جانيهن .
أما أن فسأقصد هذه المدينة . ثم تركهم غاضباً وذهب إلى
سراجه .

وجلس الرجال يتشاورون في الأمر وكان بينهم الأمير
« داود » المولع بالمجارات والمخاطر والأمير « جاكو » الذي لزم
حبيب تيمور في موقعة النهر حيث هزم القائد بيكيجوك .
ونقد كان خديين الحمدين الياسدين أثر كبير في إقناع الرجال
بتشديد أمر تيمور . قائمين : إنه إذا اعتزم أمراً فلا سبيل إلى
إفداعه . لعدول عنه . وسيستوى على المدينة لا محالة بأعوان
آخرين . فلا يصيبنا إلا الحزى باشتغى عن القتال وتيمور
لا يلتق برجله إلى التهلكة . وله من الخيل المبتكرة ما يصمن
اموز في كل ما يقدم عليه . وارتاح الرجال هذه الآراء .
وشارت حبيته . فاقسموا على أن يشعرو تيمور ويعملوا بمشيئته .
وسار إليه الأمير « جاكو » حاملاً المصحف في إحدى يديه
وسيفاً في اليد الأخرى . وقل له لقد أقسمنا على القرآن أن
نطيعك ونأتمر بأمرك . وهذا سيف نقدمه لك لتقطع به عنق

من يخالفك . واصمأان تيمور وزل غضبه . وسأل جاكو
ثلاثاً ما تظن أنى فاعل عدأ . قال تقودنا ليلاً فمدحله المدينة
قسراً . ونهجم على الأمير موسى في سريرته وقتله . فأحياه
تيمور وبحث بعد ذلك عن ثلاث آلاف سرير آخر وقتل
من فيها . إن هذه الخطة لا تجدى نفعاً .

الحرب خدعة

كن الصيف قد أقبل واشتدت وطأة الحر في هذه البقاع
من أواسط آميا . وسئم لأمر موسى الإقامة داخل الخوص .
لأنه اعتاد أن يقضى شهور الصيف في مرج له على نهر الآمو .
حيث ينصب حيامه ويقضى ليله ونهاره في مجالس الأكراس التي
تراق فيها الخمر بعير حساب . بين نعمات الموسيقى ورقص
الحواري الحسان . ولكن أنى له ذلك وتيمور عن كذب منه
بترقب الفرصة لينقض على المدينة فليستصر إلى أن يئأس
عدوه وينصرف عن قصده .

وفجأة أمر تيمور رحاله بالرحيل إلى الجنوب في طريق
لقوغل إلى هرة . ولما وصل إلى بئر تسمى بئر إسحق . توقف

عن السير وضرب حية . وأرسل رسولا إلى أمير هراة يحمل إليه
هدية عصيمة . ويستأذنه في الرحيل إلى مدينته . ثم أمر حموده
أن يحتجزوا جميع القوافل المتجهة شمالا نحو كرشي . ومضى
شهر إلى أن عاد لرسوب من هراة حاملا هدية من أميرها .
ورسلته يرحب فيها بتيemor ورحله . وعند ذلك أمر تيمور بملك
أمر القوافل لتتحد من يدها نحو كرشي . ورحل حموده إلى الجنوب .
ووصلت القوافل بعد بضعة أيام إلى كرشي . وكان
طبيعيا أن يستوقفها الأمير موسى ، ويسأل أصحابها عن أخبار
تيمور . فحدثوه عما سمعوا ورأوا وأكدوا له أنه ذهب إلى هراة
اطمأن الأمير موسى على سلامة المدينة . وخرج منها مع
حيثه تركا في الحصص بضع مئات من الجنود . وسار إلى
مضيفته على أنهر ليقيم في القرة الماقية من الضيف .
لم يوصل تيمور سيره إلى هراة . ولكنه توقف بعد مسيرة
يوم واحد . وانتظر أسبوعا كاملا . ثم عاد ذراجه إلى الشمال
بأقصى سرعة تختملها الخيل . ووصل إلى نهر الآمو . فحاصه
نفرسه وسعه رحاله . ثم أمر فريقا منهم أن يستشروا في الصرق
المؤدية إلى كرشي . ويحجزوا كل من مر إليها . وسار مع بقية
حيثه الصغير . إلى أن بدت له في الأفق مدينة كرشي .
فتوقف عند دغل صغير واحتأ فيه . وما انتصف الليل خرج

فمعه فصدأ المدينة . وورد رجاله أن يتبعوه فبعثهم . وتمرهم
 أن يتطروا عودته . وسر في حذر إلى أن اقترب من الخندق .
 أنقذ بضرة على الأسوار فلم يجد أحداً يحرسها . فاحتز الخندق
 على قدمه في موضع قبيل العور . ووصل إلى الضفة الأخرى .
 أحد يتقدم السور متفلاً من مكان إلى آخر . حتى عثر على
 سطح فيه نهد من أغلاه . وأصبح تسقه ميسوراً . وكان هذا
 يتبعه . فكر راجعاً إلى رجاله وتمرهم أن يسيروا خلفه .
 احتذروا الخندق ونسقوا سور في المصاع منهم . وهبطوا
 إلى المدينة شاهرين سيوفهم . وقتلوا من تصدى لهم من الجند
 لأهلها . واتجهوا إلى الحصن فاحتلوه بعد مقاومة هربية .
 من الخراسان الذين لم يأووا إلى مصاحبتهم . وفي الصباح سمع
 لأهل صوت بوق يرتفع من أحد أبراج الحصن . وتساءلوا
 من لبس . فعلموا أن تيمور قد احتل مدينتهم وهم ينام .
 سيقظ ضباط الأمير موسى من سباتهم . وهامهم ما سمعوا .
 فكروا في المقاومة . ولكنهم لم يعرفوا مبلغ قوة تيمور وعدد
 جنوده داخل المدينة وحارحها . فرضوا بأخريتها . وسروا إلى
 تيمور مصهرين له حصوعهم . فشكرهم على ذلك . ونصحهم
 الانضمام إليه فقتلوا . وأقسموا له بيمين الطاعة . وشد عنهم
 من الأمير موسى . ونحس في منزله . فأمر تيمور أن

تشعل النار في الملوك ، ولما رأى الشاب أن الخطر محقق به
 خرج حاملاً سيفه فوق عنقه وسلم نفسه لتيemor . فاحتقن به
 وهماً بشجاعته واستشهاده في المدينة .

وكان طبيعياً بعد الاستيلاء على كارشي أن تزداد شهرة
 تيمور وترتفع منزلته في نفوس النتر . ورأى الرعماء الناقمون
 على حكم الأمير حسين أن تيمور خير من يفودهم . فانصموا
 إليه جميعاً . وأمدوه بالمال والرجال ونذيرة . فاشتد ساعده .
 واشتعلت حدوة بشطه . وقد جيشه من نصر إلى نصر .
 وعرا البلاد الكرى وهدم حصونها واحتلها وطرد حكمها .
 وأقام عليها حكماً من قبله . وحاو الأمير حسين أن يقاومه
 فلم يفتح . وأخيراً دارت عليه الدثرة . ونالت عليه الهزائم .
 ففر إلى سج في الحبوب وتحصن فيها . ولكن تيمور اقتنى أثره
 وبدد شمل جيشه . واضطر الأمير أن يستحق في ثياب رثة .
 ويلجأ إلى مسجدي ويأوي إلى مئذنته وعندما صعد المؤذن في
 الفجر ليدعو الناس إلى الصلاة . وجد تحت قدميه جثة
 هامدة . والمرجح أن بعض أعوان تيمور كشفوا سر الأمير
 وتعقبوه إلى مخبئه وقتلوه .

تيمور أمير التتر

أصبح لزماً على التتر أن يختاروا أميراً ليتولى الحكم .
 فاجتمع زعمائهم وشيوخهم في بلخ . ووفد إليها أئمة الدين وكبار
 الضباط . وعقد الجميع مجلساً لتشاور في الأمر . وكانت
 السبيل متجهة إلى العمل بالميثاق القديم الذي اتفق عليه معول
 والتتر في عهد حنجيرخان . واقترح أحدهم أن يسلكوا الخطة
 التي اتبعها الأمير حسين من قبل . وهي أن يختاروا أميراً من
 أحفاد حنجيرخان تكون له السطة الاسمية . أما الحكم الفعلي
 فينولاه أحد زعماء التتر . وهنا ثار رجل الدين . وكان بينهم
 شيخ تقي وقور ذو نفوذ ديني عظيم بين جميع طبقات الشعب .
 اسمه « أبو الركات » . قال إن حنجيرخان كان في مبدأ
 حياته فاطع طريق . واستطاع أن يعزو للبلاد الإسلامية
 ويخضعها لحكمه بخد السيف . ويأبى عيب دين أن يرتبط بعهد
 فرضه عاصب ظالم . فقال بعض الزعماء : إذن فليتولى كل من
 الحكم في بيده وقيلته . وتعاون جميعاً بدفع أي خطر يصيب

أُحد فرد عليه الشيخ قائلا . إن هذا الحكم الإقطاعي
يؤدي إلى تمكث الروابط بين النتر والتمركة بينهم . وما رلد نذكر
. حدث عندما أقبل طبعك حول نحيشه . فقد تسبقتم إلى
السير في ركبه . وتنافستم في إصهار الولاء له . وتحمسن رجال
الحيش فقلوا إن سلامة البلاد في وحدتها وتصاممها ونواية أمير
عليها من أهلها يقيم الحكم فيها . ويدبر شئونها ويصول الأمن
فيها . ويدفع عنها صدم من يصنع في اغتصابها أو قنطاع شي
حرء من . ورحلت هذه المفكرة بعد نقاش صويل .

ولم يشأ تيمور أن يحضر هذا الاجتماع فتركهم يقررون
مصير البلاد بحرية وبغير تأثير من حابه .

وانتقل حث المجتمعين إلى انتخاب أشخاص الذي يتولى
هذا المركز الحصير . فلم يحدوا أصح من تيمور . فاتفقوا على
توليته . وقدموا جمعهم قاصدين السرايق الذي يقيم فيه .
وحبوه بتحية الملوك وعاهدوه على الولاء والإخلاص . ومروا
الذين على كل منهم مصحف الشريف فأقسم عليه ألا يدين
بالصاعه لأحد سوى تيمور . وكان هذا سنة ٧٧١ هـ ١٣٦٩ م
عندما بلغ تيمور ثلثة وثلاثين من عمره .

وقد شكرهم على حسن صميم به . وعلى الثقة التي أولوه
بها . ومنح كلا منهم هدية ثمينة . ثم عين منهم حكام البلاد

ومستشيره وكذا القود ورجال ديونه . وكان حربياً على أن
يرضى جميع قتال بتعيين زعماء وشيوخها في مراكز رفيعة
خطيرة .

واتبع سياسة الحزم مع العطف على رعيته . يعقب لمسى
ويكفي محسن . ولم يجعل لأحد من المقربين منه نفوذاً عليه .
يستشيرهم في أمره ويعمل بما توحى به إياه نفسه . وذرت حيله
على نظام وانضاه لعمياء . وكان حذيراً جداً في قومه وأهولهم .
فستطاع أن يسودهم ويسلم قباذهم .

وكان سرياً في اتصافه على أية حركة تهدد أمن البلاد عرف أن
بعض شعوان الأمير حسين يحضرون في بلادهم وأخذوا يستعدون
له وأنه . فسار إليهم وهرمهم وأمر بقتلهم ثم هدم حصونهم وحرقت بيوتهم .
وسمع أن قبيلة من دعوى أغارت على حدود الشمالية
وعادت بعد أن سدت دوائ الأهل . فأمر صابطين أن يسير
مع شرملة من الخند لتأديبهم واستعادة الأسلاب منها . فدار
تنفيذ أمره ووصل إلى سير حتى وصل إلى مصارب القبية
فوجدناها حالية من سكان فعدا أذاحهم . وفي منتصف
الطريق رأيا صابراً مقبلاً من الجنوب ومعه فريق من الخند
فسألاه عن وجهته . فجاب : أرسني الأمير تيمور لأخت
عن القبيلة التي صلتكم . وراك في أمرهما وحجلاً وزافقه .

وتسعوا جميعاً أثر القنبلة حتى عثروا عليها . واقتصوا منها . وعادوا
 إلى المون التي احتلتها . وقد شكرهم تيمور جميعاً وكافهم . ولم يطق
 بكلمة تمس كرامة الصبطين . وكان هدا درساً قاسياً لهما ولغيرهما .
 وحدث مرة أن فر ضابط من الميدان في إحدى المعارك .
 فحرده تيمور من سلاحه وربطه على ظهر حمار مولياً وجهه
 نحو الدين . وسيره على هذا النحو في شوارع سمرقند يستمع
 من ضحك الجمهور وبخبرته .

لقد كان تيمور يعقت الحنان ويزدرية . ويحب الشجاع
 بخى . وأدرك الجيش ذلك فتنافس ضباطه وجنده في إرضاء
 هذه النزعة فيه وخصوا معه المعارك ببسالة لا حد لها . وبما
 يحوهم القواد والضباط الدين لا ينحدرون من أصل ترى .
 سمع تيمور أن جموعاً من المغول تحطت الحدود . فأمر
 فصيلة من الحند بطردهم . ووضعها تحت قيادة رجلين عرف
 باخراة وحدة الطبع . أحدهما عرنى الأصل يسمى « على
 بهتور » والثاني صيني ويدعى « خيتاي بهاتور » . فجدا في
 السير بصعوبة أيام حتى وصلا إلى صفة نهر . فوجدوا المغول على
 الضفة الأخرى . وجلسا يتشاوران فيما يصنعان . وكان من رأى
 خيتاي أن يدرما الحذر ولا يشتكيا مع العدو قبل أن يصلا إلى
 الضفة الأخرى بحيلة يدرانها . فابتسم على قائلاً . أهكدا

حاربون في الصين " فعلى الماء في عروق حيتى وسئل سبعة
 متطعي فرساً غير مسرحة؟ ووقع بها نحو نهر، وحذره وهم على
 الأعداء وحده وقتل أول رحلين تصدياً به، فتكثروا عليه وشكوا
 معه في صراع عفيف، وفرع رفيقه على وهدع قلبه عليه، فتدفعه بسرعة
 برق ولزم جانبه برد الطعنات عنه، حتى أقبلت جنودهم في أثرهم،
 بدفعوا الأعداء عنهم وقتلهم، أن هوت صفوفهم ولاذوا بالفرار،
 وحدث مرة أن اشتبكت فصيلة من تنر مع جيش
 لتركمان المنتشرين على حدود الغربية لبلاد الهند، وكاد التنر
 يهزمون، لولا أن قام ضابط معوذ يسمى «متحى بو» ونحى
 في الميدان حتى عثر على حثة لها رأس أصعب ولحية سوداء
 طويلة، فقطع الرأس وحمه على طرف رمح واحد بقرسه في مساحة
 يقتات أمام صفوف الأعداء، وهو يصيح قتلاً، هذا أميركم
 «قره يوسف» قد قتل واحدك انتركمان بهذه الحيلة، ففترت
 همهم وتحدلو وبدأوا يترجعون، وقويت عزيمة الشرفهشوه هجوماً
 عفيفاً على أعدائهم وتوعدوا في صفوفهم واضطروهم إلى الفرار، وعلى
 رأسهم أميرهم «قره يوسف» لدى كاد يتمير عيصاً من بلاهة رحاله،
 لقد نجح تيمور في أن يست في رحاله روح المرأة
 والإقدام وتنصحية بالنفس العزيزة، فلا عجب أن يصح
 جيشه قوياً مهيباً وأن يخشاه الملوك والأمراء، ويتقربوا إليه

بأشدايا القبيسة . وقد وفد عليه أمراء من القبائل غير التتارية
ومعهم أتباعهم ورحلهم اشجار بون . فضمهم إلى جيشه . وكان من بينهم
الأمير بابان ابن القائد بيكيحوك الذي عفا عنه تيمور وأطلق
سراحه .

احتلال خوارزم

فكر تيمور في أن يروح إليه « جاهد حير » . فاحتار له
 فتاة جميلة تسمى « حاب راده » بنت أمير خوارزم « حسين
 الصوفي » وأرسل إليه رسولا من رجال الدين يخطفها منه ، فأساء
 لص وتوهم أن تيمور يعامه كما لو كان أحد أولاد التابعين
 به . فرد على الرسول ردًا حشياً وأمر سجنه .

وثارت ثائرة تيمور . فجهز جيشاً وتجه به عرباً مختبراً
 الصحراء التي سبق أن صل فيها مع زوجته واسه . حتى وصل
 إلى مدينة حيوة . وكانت دلت أسوار عالية ، ويحيط بها حندق
 عريض . هملأه الحدد بالرمال والأخشاب واحتاروه . وتسلفوا
 لأسوار على سالام تسدوها عليها وكان أول من تسفها « على
 به تور » العربي . وما كان هذا ليبرصى مدهسه « حيتى »
 الصبى الذى أسرع وراء على وحذنه من قدمه . فسقط في
 الحندق . وصعد هو السلم . وكان أول من اشتبث مع الأعداء
 على حافة السور . وتبعه بقى الحدد . وقتلو الخرس وبلوا إلى
 المدينة . ودارب معركة حامية في شوارعها قدر فيها النصر
 لتيمور . وفر الأمير حسين الصوفي إلى مدينة جرحانية على نهر

الآمو ونحصدن فيها . وتعقبه تيمور إليها . ولما وصل إلى أسوارها
 جاءه رسول من قبل الأمير قائلاً له : لماذا بلقي برحالمنا إلى
 استهلكه ! فسحس السراي ببسا تماردة ثائية . لا يشترك فيها أحد
 سوانا ، ولشكن اعسة لمن يتصر . فلم يتردد تيمور في قول هذا
 المتحدثي وحدد مكان الماررة وميعادها

وفي الميعاد المصروب لبس تيمور درعه وحوذته الذهبية
 وتقد سيفه وقبض على نرسه ثم امتطى جواده . ولما رآه القواد
 ولأمراء هبت أفندتهم . وأقبلوا عليه يحاولون إقصاعه بالعدول عن
 عزمه . وتقدم انشبال منهم يريدون أن يخلوا محله . ومن بينهم
 الأمير باباي . لكنه رفض بإباء . وجاء سيف الدين وهو أكبر
 الأمراء سناً . فمسك بعمان الفرس راكعاً على قدميه . وتوسل
 إلى تيمور بسوء حرة ألا يحازف بنفسه . فعصب تيمور
 وسئل سيفه وصريه بقبضته على يده قائلاً . أتريد مني أن
 أكون جباناً ؟ ثم وكز حواده فأحد ينهب به الأرض . حتى
 وصل إلى انكناك المعين وكان على مقربة من أسوار المدينة .
 وبادى حراسها قائلاً . بلغوا أميركم أني بانتظاره . ووقف تيمور
 كالصود الراسح . معرضاً لسهام الحراس وحراهم التي قد
 يطلقونها عليه في ثورة من الغضب . وطال انتظاره دون أن
 يخرج إليه خصمه . فعاد أدراجه غاضباً . واستقبله رجاله

مظاهر الفرح وأحب العميق والإعجاب بشهيمته .
 وأصيب أمير خوارزم عمرص فجائى قصى عليه . وفتح
 نديبة أبواها لتيemor فاحتلها . وهذا أصحت حوررم . بقه
 . فعين اسه « حاهجبر » حاكماً سايها وروحه لأميره
 جان زاده .

وأقيم هذا الزواج فى سمرقند حفل رائع لم يشهد لأهلى
 مثيلاً له من قبل . وأقيمت العروس من حرجية محمولة على
 نودح تحف به كواكب من المرسا . ويتبعها جماعة من
 إبلن حاملة هدايا العروس بروحها . وسر الموكب فى صوفت
 كسوة بالسجاجيد المنمسة . وقد أقيمت التريات على البيوت
 المساحد والحوايت ، ووصف الأهالى على حوب الطريق
 يستقبلوا أميرتهم ويرحبوا بها . ووصلت العروس إلى سمرقند
 بطيم أقيم لحفلة الزواج . ونفقت فيه ثروة صائمه . فاستأثر
 من الحرير الموشى بالذهب . والسقف قه ررقاء سماوية ريت
 الخواهر الكبيرة المتألثة كالبحوم . ومقصورات مملوءة بالهدايا
 ثمينة التى قدمها تيمور للعروس . وأعد سراق آخر سمدعوين
 من حرجية وسمرقند وخارى وغيرها . ومدت فيه اموائد الحوايت
 تشبه ألوان الطعام وأنواع الشراب . وأقبل الخوازي المئات
 سائين الضيوف بالرقص ولعناء والموسيقى . وبينهم الممارسين

والتركيات والنصيبات الثلاثى كرس سايه حرب . أو اشترين من
أسواق الرقيق بأعمال باهظة . لخرط جملهم وتناشق أحسامهم .
وفي وسط هذه الجموع احاشدة مر تيمور يشتر الذهب والفضة
ويؤثر بسحاء لا بصير له . ومن ضريف ما حدث أن خمس
أحد لصيوف في أدن حاره قتلا . « نظر إلى تيمور إنه
يبتسم . قد هس الرجل وتفرس في وجه تيمور ثم قال لرفيقه :
« لقد لعبت خمر برؤسك وفقدت صوابك وتحيت استحليل »
حقاً لم يبتسم تيمور بالرغم من مظهر الفرح ولشرا التي ملأت
قلوب الحاصرين . . تلك كانت عادته التي اتزمها طول حياته
أم أنه أحس في سريرته أن « حان رده » ستكدر صمو بيته
في حياته وبعد مماته .

امتد مدك تيمور عراً إلى بحر قزوين (أو الخزر)
وشمالاً إلى بحر آرل (أو بحيرة خوارزم) . وتطوع إلى الجنوب
وراء سمر الآمو ، فوجد مدينة هراة ذات الأرض الحصنة .
والتجارة الوسعة ، والمعنى الوفير . فطمع في أن يصممها إلى
ملكه . وكان أميرها « عياث الدين » هو ابن الأمير مانك امدى
وقع من قبل أسيراً لكرخان ثم أطلق سراحه . ويذكر المؤرخون
أنها كانت تضم مائتين وخمسين ألف نسمة ، وعشرة آلاف
حانوت ، ووضعت مئات من دور العلم ، وثلاثة آلاف حمام .

في ذلك العهد لم يكن سدن أو باريس أكثر من ستين ألف
سمة وفليل من المدارس . أما الحمامات مساحنة فلم يكن لها
وجود بهما .

واستحل تيمور عنراً لإثارة النزاع مع عياث الدين فعينه
عصواً في مجلس الأمراء لدى اعتاد أن يعقده سويماً . ودعاه
لحضور . فماتل أولاً ثم رفض . وأخذ في تحصين بلده
بهيئة الدفاع عنها . وكان هذا في نصر تيمور سبياً قوياً لإعلان
حرب . فجهز جيشاً قوامه خمسون ألف رجل . وحدث في السير
أن اقترب من المدينة فاعتصره حصن مبيع . وقامت معركة
حامية أصهر فيها تيمور سألته المعهودة . إذ اشترك في القتال
مع جنوده . دون أن يفي جسمه بدرج أو ترس . وقد أصابه
سهمان وحراج حرجين بليعين . ولكنه لم يخلل بهما . وواصل
القتال . واستطاع أن يدك أركان الحصن ويبعد حراسه .
وأدرك عياث مدين أن المقاومة لا تجدى نفعا . فسار بنفسه
إلى تيمور طالباً منه الصلح . فاستقبله بخفاوة وسيره معرراً
مكرماً إلى سمرقند . ثم فرض صرية على الأهالي . فدفعوها .
وعين حاكماً من قبله على المدينة . وعاد بعد أن حمل معه
كنوز ملوكها وأموالهم وعرشهم الذهبي .

عاصمة التتر

اتسعت أملاك تيمور بعد أن استولى على هراة ، وبلغ امتدادها من سمرقند خمسمائة ميل في الجهات الأربع . فكان صعباً أن يشهد هذه المدينة المتوسطة عاصمة له . وكانت عية أرضها التي تحوّل بأربعة محاصيل في العام ، وحدائقها التي تنتج لأرهار ونماكهة . وتحارثها الوثيقة الاتصال بالقوهل المارة بها حملة صادرات الشرق إلى الغرب . وصداعتها التي امتدّت بأحود أنواع كاعد وفصل شباب الحريرية ذات اللون الأحمر حتى أسرم بها أهل أوربا . وكان التتر يسمون هذه الثياب قمرمرى . ومنها أخذت الكلمة الإفريقية (Crimson) .

وكانت المدينة على ضفة نهر صغير تنمّرع منه الجداول إلى الأرض الزراعية ، وتمتدّ منه أنابيب رصاصية إلى البيوت . واعتاد الأهلى أن يتروضوا على حانبه في المساء . طبعاً للراحة من عدا لعل . ولاستشاق الهواء الصافى العليل .

وبدأ تيمور جهده في تجميل عاصمته ، فهدم البيوت العتيقة وأقام مكانها مباني حديثة متينة . وشيد المساجد واقصور . وسق النورع والمبادين ورصفها بالأحجار . وغرس فيها

الأشجار والحدائق ، وبني سوراً عالياً حوها يبلغ محيطه خمسة أميال ، وحصنه بالقلاع المنيعة .

ولم ينس مستط رأسه « المدينة الخضراء » . فجعل منها روضة مبهجة . وبني لولده قبراً عظيماً . وأقام فوقه قبة ذهبية . ورفع البيت المتواضع الذي بناه لزوجته « الحاي » وشيد مكانه قصرأً أيقاً . وكان يتردد إليه في الشتاء ليذكر أيام السعادة التي قضاها مع رفيقة صباه .

ومن عريب أمره أنه رهد في ألقاب الشرف ، فلم يناد بعنسه ملكاً أو خاتماً . وكان هذا سهلاً عليه يسيراً . وظل قانعاً بنقب الأمير طول حياته . حتى بعد أن أصبح نصف العالم في قبضة يده ولكنه حرص على أن يكون حاكماً بأمره قوى الإرادة صلب المراس . وكان قومه يسمونه ذا اليد الحديدية . إشارة إلى كلمة تيمور التي تعني في لغتهم الحديد

وفكر تيمور في الزواج ، فاحتار « سراي ملك حانوم » إحدى زوجات الأمير حسين . وأحاطها بمظاهر العروسة وهدية الملك . وشعر شعبها ووفاتها له . فطمأنت نفسه إليها . وأطلق لها حرية التصرف في شئون قصره . وكان كثيراً ما يستشيرها في أمره ، ويروح لها بمكنون سره .

وكان حم النشاط دائم الحركة يتنقل من بلدة إلى أخرى

ليدير شئوبه ويقوى وسائل الدفاع عنها

رحل في سنة ٧٧٧ هـ - ١٣٧٥ م في الشمال الشرقي لينتقد
أحوال الملوك . واستصاع أن يعتصب مدينتهم الحصبة . لذلك
وأن يردهم وراء حدود بلاده . ليؤمن غاراتهم عليها . وقد قطع
في هذه الرحلة خمسمائة ميل في لذهب ومثلها في الإياب . ولما
عاد إلى سمرقند خرج أهلها لاستقباله . وقد لسوا الحدود جميعاً .
وسار الأمير سيف الدين مع كوكبة من الفرسان خلاص
سود معصرة بالتراب . وما اقترب من تيمور ترحل وهرب إلى
وركع بخانيه . ممسكاً بركاب فرسه . وهو مضطج الرأس
حاشع البصر . فقال له تيمور : « نخشى شيئاً » تكلم :
قال : إن في النفس حسرة . وقلب مكلوم » قال ولم : قال :
إن القدر قد احتطف أبلك » حاهنجير » وهو في مبة الصبا .
على اثر مرض لم يمهله . كرهرة يدعة اقتلعها ربيع عاتية من
عصنها . فقطب تيمور حميه وعض شفته وقال لسيف الدين
قم وواصل السير . ودخل المدينة الركب في سكود ووحوم .
وقصد تيمور قصره واستدعى خان راده أرملة ابنه . ووساها
وحمل مولودها الصغير بين أحصانه . وخمس في أدبه قائلاً :
« لقد كان أبوك أعز إلى من نفسي » .
وعنكف تيمور مستعداً عن الدس ربحاً من رمس .

فتنة بين المغول

في هذا الوقت كان مغول مسيطرين على سيبيريا وأوسط آسيا حتى نهر التولجا وقد استولوا على بلاد القرم . وأقاموا عليها حاكماً منهم وفرصو خزية على الروسيا كانت تدفعها صاعرة . وقد أعدوا من مدينتي سرائ واستراخاد على نهر التولجا مركزين قويتين لمراقبتها . فكما ندرت منها بادرة لعصيان أو التراجع عن دفع الحرية أهدروا عليها مجموعهم الزاخرة . وخرّبوا ديارها وقتلوا أهلها . وسلبوا أموالها . وأعادوها قسراً إلى الخضاعة .

وحدثت فتنة بين أمراء المغول . واعتدى أمير يسمى « تكتميش » على ابن الخان فقتله . وفر إلى سمرقند طامعاً في حماية تيمور . وحضر في أثره رسول من « أوردوس خان » برسالة يطلب فيها من تيمور . لأعرج أن يسلم تكتميش في الخان . وإلا عرض نفسه لحرب شعواء لا قبل له بها . وكانت هذه أول مرة يواجه فيها تيمور بهذا الوصف . ولكنه كتم غيظه ورد على الرسول قائلاً : لقد بحثُ إلى « تكتميش » وسأبذل ما في وسعي لحمايته . وأن على استعداد لملاقاة الخان .

وأكرم تيمور وعادة ضيفه . ودعاه ابنه . وأهدى إليه
 مدينتين محصنتين على الحدود الشمالية . وزوده بالمال والجنود
 والنسائط والعتاد الحربي ليتمكن من الاحتفاظ بهما . وما كان
 لثل « تكتميش » أن يقنع عوقف الدفّاق فحسب . فبدأ يش
 العرات على جيرانه المعول . فردوا العدوان مثله . وهرموه وبددوا
 شمل رحاله . واضطر أن يعود مهزوماً إلى سمرقند . فرحب به
 تيمور وجهزه ثانية بمال وفير . وجيش زاهر . فرحل به ليستعيد
 مدينتيه المفقودتين . وفي أثناء الطريق سمع موت « أوروس خان »
 فعقد البية على أن يشب إلى الملك . أليس هو من أحفاد
 حنجيرخان وأقرب الأمراء إلى العرش وأولاهم به . وقد جازف
 بجتياز الحدود تاركاً للقدر أن ينصره أو يحمله . وقد بسم له
 الحظ . فما إن علم أنصاره بمقدمه . حتى أقبلوا عليه من كل
 صوب وحذب . فاستعد بهم ونحموه التتر على محاربة حصومه
 ومعاذيه . وتمكن من أن يتغلب عليهم ويشق طريقه إلى العاصمة
 سراي على المولخا ويستولى على العرش .

وحرحت روسيا عن طاعته . فجمع جيشاً قوياً . وانطلق
 به إليها . ودمر بلادها . وقتل بأهلها وسلب أموالهم . واحتل
 موسكو عاصمتها . وعاد بعد أن أرغمها على الخضوع
 لسلطانها .

إساءة بعد إحسان

لم يقع « تكتميش » مملكة الشاسع امدى شمل سبيرا
والروسيا لقد رأى سمرقند وهرنه كسورها . فسولت له نفسه أن
يعتصمها . وعلى حين عرة عبر هر السمر بجموع حاشدة من
المعول . وتغلب على المقدمة التي لقيها من جنود التتر وبشر
الرعب والخراب في البلاد .

ولم يكن تيمور إذ ذاك في سمرقند . فقد ذهب في رحلة
كشفية إلى بحر قزوين مع فريق من الجند . وهلاك فاحاته
الأخبار المزعجة التي تلقاها عن بلاده فشد الرحيل إليها .
وتمكن من أن يصل إلى سمرقند قبل أن يقترب منها جيش العدو .
وعلم تكتميش بعودة تيمور . فعاد أدراجه إلى بلاده .
لأنه لم يرد أن يشنك مع تيمور في موقعة حاسمة .

وجمع تيمور الأمراء وقواد الجيش وكبار الضباط .
وكافأ الذين دافعوا عن البلاد رسالة . سواء منهم من انتصر
أو غلب على أمره . واستحضر ضابطاً هر من الميدان . وحلج
عنه زيه العسكري وألبسه ثوب امرأة . وطلّى وجهه بالأبيض
والأحمر . وساقه في شوارع المدينة حتى يقدمين ليسخر منه الجمهور .

وأدرك تيمور أن « نكتميش » سيعود حتماً لغزو بلاده .
 فعكف على تصميم حيشه وتعيده بعناصر قوية من الرجال
 الأشداء . وقد صدق صه . فقد هبط « نكتميش » من الشمال
 بخيش لا يحصى له عدد . وأعاد تمثيل المأساة الأولى . واستغل
 أهل جرحانية هذه الفرصة فحرقوا على حكم تيمور . وأغاروا
 على بلاد السجادة . يعملون فيها لسلب والنهب غير عابئين
 بنصبة السب التي تربط أميرتهم حان راده ببيت تيمور .
 وتعاضى عنهم تيمور مؤقتاً . وذهب لملاقاة نكتميش . ولكن
 هذا كان أرواح من الشعب . ففصل الأسعاب . صمماً
 في أن يتعقبه تيمور فيستدرجه في وهاد سيره القاحلة . حتى
 إذا أدركه الجوع وتعب باعته بضرته فاصمة تقضي عليه
 وتبقى حيشه . وما كان تيمور ليتردد في اللحاق به . ولكنه
 أثر أن يطمئن أولاً على سلامة الأمن في بلاده . حتى لا تقوم
 فيها الثورات وهو بعيد عنها . فسار إلى جرحانية وحاصرها .
 وترك الجوع يفتك بها . ثم هدم أسوارها وحصونها . وأصق
 حدوده لتأديب أهلها . ففسدوا أمواظهم وأبادوهم طعماً بالحرب
 وللبؤس . ثم أشعلوا النار في المدينة وتركوها خراباً موحشاً مكدمساً
 نحت القلب . وكان هذا درساً قاسياً لبلاد الأخرى فظلت
 على ولائها لتيمور .

وأقبل « تكتميش » للمرة الثالثة بحفاله المعولية . ووضد
 تيمور عزمه على الملحق به ومطاردته بحيث لا يفلت منه . وكان
 يعلم أن الرحلة ستكون طويلة شاقة . وفي صحارى مجردة لا ررع
 فيها ولا ماء . ولا تحود بأصيد . وأن حصمه يستطيع أن يجتهد
 من بلاده رجالا لا حصر لعددهم . ويمدهم عما يحتاجون إليه من
 مؤونة وذخيرة . ولكن هذا لم ينه عن عزمه . فخرج من سمرقند
 في جيش قومه مائة وخمسون ألف فارس . مرود كل منهم
 بدرع . وحملة . وسيف . وقوسين . وكماء مملوءة بالسهام .
 وحرية مدلاة وراء ظهره . واحتاط بصوائئ . فأعد لكل منهم
 فرساً آخر . لأن الحدى في مثل هذه الحرب ، إذا فقد فرسه
 أصبح قليل الجدوى . وسار وراء هذا الجيش مئات العربات
 والإبل التي تحمل الخيام والأمتعة والمؤونة

المطاردة

سمع « تكتميش » بقدوم تيمور ففر كعادته واحتفى عن النظر . ولكن تيمور قد أعد فريقاً من الكشافة وورعهم في جهات متفرقة ، وأمرهم باقتناء أثر العدو وتتبع خطواته وموافاته بأحماره وحركته . وهذه الوسيلة تمكن تيمور من السير إثر خصمه ومطاردته .

وأدرك « تكتميش » أن تيمور يتبعه كظله ، فعمد إلى إرهاقه وإنهك قواه بالارتحال الدائم بين قنار سبيرا وصغارها المحدبة . واضطر تيمور أن يسير في أثره . فعبر نهر السبر ، واجتاز الصحراء القاحلة إلى أقصى الشمال . ثم انحرف غرباً حتى وصل إلى نهر الأورال الذي يتفرع من القولجا .

واستغرقت الرحلة ثمانية عشر شهراً . قطع فيها الحبيش ألفاً وثمانمائة ميل . وكان تكتميش يخلو المضايق التي يمر بها من سكائبها وماشيتها وما بها من مواد التعذية لكي لا يستمتع بها خصمه . ولكن تيمور روص رجائه على احتمال الشدائد والصبر على المكروه . والمعيشة على الكثاف . وكان إذا نمر أحد الحيد أثرله عن فرسه . وأرعمه على السير خافياً . وملاً

جداه بالرميل وعائلته حول عقه . وإذا توانى في السين لقي حتفه .
وتعتبر هذه الرحلة من أشق الرحلات التي قطعها جيش
فانح . ولولا بقطة تيمور وشدة لاءت بالمثل وأهزيمة .
وقد حاول الروس أن يرتادوا هذه المحاول في عهد بطرس الأكبر
الذي سير إليها جيشاً في سنة ١٧١٦ م بقيادة الأمير اشركسي
بيكوفتش . فصل في وهاده وهجم عليه اتركان . وهن حيوه
فقتلوه وأبادوا جيشه .

وأخيراً وصلت أنباء اكتشافه بـ « تكتيش » رابض بجيشه
الكثيف في الأدغال الممتدة على الضفة الأخرى للنهر . وأنه
يستعد للقتال . وكان هذا ما تصبو إليه نفس تيمور . فأمر
أن تضرب الخيام ليستريح الجيش حول الليل وأن يتهيأ كل
الطعام المحزون ليتمكن الجند من أكله صبية .

ولما ابتق الفجر أمر تيمور باختيار النهر . ثم نظم صفوف
جيشه . وأرسل إليه « عمر شيخ » في الضليعة ومعه عشرون ألفاً
من الخيود الممترين بالشجاعة . لبدأ بمداوشة العدو . ثم عززه
بخمسة آلاف رجل بقيادة سيف الدين . وكان تكتيش قد
أعد جيشه وبطمه . حتى لا يؤخذ على عرة . وجعل حطوطه في
شكل قوس صوف ميلان . ومنحرفة نحو العدو . لتصل عليه في
أثناء المعركة . وكانت متفوقة في العدد وعدة على جيش تيمور .

ولم يتهيب « سيف الدين » و « عمر شيخ » من احموع المترصة
 أمدهما كحائط من المولاد . فاندفعوا صوبها . واشتد
 الفريقان في صراع عنيف شاق . وتحرك تيمور جيشه حائلا
 الميعة بقيادة امه الصغير ميران شاه . والميسرة ولوسه بقيادة
 أميرين ماهرين وسار حلف الجيش نخسه الخاص ليشرف
 على المعركة ويتقدم نصف الصعف في صفوف حده ليدار
 بنجدها .

وأمر تيمور باهجومه . فانطلق رجاله كدثاب الحائفة .
 ونوعوا في صفوف أعدائهم بسالة ممقضة المطير . فشتوا لهم .
 وحمل وطيس القتال . وسالت الدماء عريرة من الحدين .
 وتطايرت أشلاء القتلى . وحمل الخيل من راضيها . فجمحت
 وداست بحوافرها الجثث التي تكدست في الميدان . واستمر
 الصراع ساعات طويلة بين مد وحزر . إلى أن أحد الإغيا
 بانغول وتحصلت صفوفهم . ورأى تيمور دلائل الصعف
 والتمكك في الحدود المحيطين شكنميش وريته الملكية . وكان
 يترقب هذه الفرصة من بدء المعركة . فاستعلاها وهجم عليهم
 فحاد نخسه الخاص . فدب فيهم الدغر وترجعوا أمامه .
 وأدركت تكتميش أن هريته محققة . فآثر بقرار على الكفاح .
 ونهجه أمره المعول وسلاؤهم . وسادت الموصى بعد ذلك في جنود

الأعداء . ففهم من لحد بنفسه مختبئاً عن ميدان . ومنهم من واصل القتال فحر صريعاً . أو وقع في الأسر . وجمع تيمور الأسرى وأمر بقتلهم جميعاً وإلقاء جثثهم في مستنقعات القوبلجا . وبذكر المؤرخون أن مائة ألف من المعوز بقوا تحتهم في هذه المعركة .

وستولى تيمور عن محلات جيش المعوز من جبل وعتاد حرني وأموال طائلة . كانت مكدسة في حياض الأمراء لغاريين . ثم أصق رحاله لسلب وأهبط . فداؤوا بالبلاد الواقعة على صفتي النوحا . ثم انحدروا إلى أروسيا فوجدوا بها ثراء لم يخلعوا به . من ذهب وقصة وحواضر وثياب حريريّة وفراء ثميّة . وصدر إليهم الأمر بالعودة إلى المعسكر . فرجعوا ومع كل منهم رعين من الخيل ، وثروة يعيش بها عنياً طول حياته . هذا عدا لسايا من الفتيات الجميلات .

واحتدر تيمور أميراً من المعوز اتخلصي له . وولاه خائناً على الأقطار الشاسعة التي ضمها ملكه في هذه الحرب . على أن يكون خاضعاً لسيده . وعمره جيش قوى . ثم عاد إلى سمرقند .

ومرت ثلاث سنين وتكتميش قابع في شحمته . ولكنه عاد ورجأ من أعالي النوحا ونصمت له سراي وأسترخان .

واضطر تيمور أن يرجع بجيشه ، ليدراً هدا الحظر . واستطاع
أن يهزم عدوه . فلهذا إن الفرار تاركاً أتباعه بالقضاء اختوه .

وقرر تيمور أن يؤدب المدينتين اللتين ثارتا عليه . فدكهما
دكاً . وأشعل النار فيهما . حتى التهمت مبانئهما . ثم قتل
سكانهما جميعاً .

وارتفعت موسكو عندما سمعت أن رايات تيمور تخطت
نهر الدون . وساد الفزع والاضطراب بين الأهالي . واستعد
أميرها للحرب . ولكن أمله كان ضعيفاً . وقد أرسل إلى مدينة
فيشاحورد Vishai gorod واستحضر تمثلاً قديماً للعدراء
كان للروس اعتقاد راسخ فيه . وسيره في المدينة بين الأهالي
الراكعين على حواف الطرق . متصرعين إلى العدراء أن نذراً
عنهم الخطر .

ولأمر غير معروف عدل تيمور عن عزمه . وانحدر
إلى الجنوب يبعي ارتياد الخاب العرفى من بحر قزوين . واختار
بلاد القوقاز ذات الجبال الشامخة والأدغال الكثيفة والمسالك
الوعرة . وقاومه سكانها الجورحيون بسائتهم المعروفة . ولكنه
تغلب عليهم . بعد جهد ومشقة وحسارة كبيرة في الأرواح .
ووصل إلى الحدود الشمالية لبلاد الفرس . ومر ببعض البلاد
فاستسلمت له .

أبراج من جماجم البشتر

واصل تيمور السير إلى مدينة نكرت (عني الدحله بين بغداد والموصل) . وكان يحكمها أمير مستقل لا هم له مع قومه إلا سلب القوافل وقطع الصريق . وتقع المدينة عني ربوة عالية . ويحيط بها سور سميك ذو حصون منيعة . ولا يمكن الوصول إليها إلا بطريق واحد خلال صحور وعرة المسالك . وأرسل تيمور إلى حاكمها يصب منه تسليمها . فأبى وسد الطريق المؤدى إليها . وحاصر تيمور المدينة سبعة عشر يوماً . إلا أنها لم تستسلم . فأمر مهندسيه بصنع معحيقات ضخمة ، لتهدف مساكنها وسكانها بالأحجار . ولكن هذا لم يثمر . وعزل صر تيمور . فعهد إلى فريق من الخوذ الواسل أن يستلقوا المصخور بأية تضحية . ويفتحوا فجوات في أساس السور . بآلات الحفر . ثم يملأوها بالوقود والریت ويشعلوا النار فيها . وتلك طريقة قديمة لسف المباني . وقام اخند بما أمروا . غير مباينين بما يصيبهم من فتك السهام والخراب التي يقذفها عليهم الحراس من أعلى السور وتصدعت الجدران في مواضع كثيرة . وتسلق تيمور المصخور . ونعته جموع كثيرة من جيشه . ودخل

المدينة فاستسلمت له بعد مقاومة ضعيفة من الحراس . وعثا
 تيمور عن السكان لوادعين . ولكنه جمع ثغريين وقتلهم
 جميعاً . وفصل رؤوسهم . وأقام من أصحابهم هربين كبيرين
 شهما باملاط . وكتب على قاعدة كل منهما « نيك عاقبة
 الباغى الأثم » وكان أول به . يكتب « هذ حراء من لا يحصع
 لتيمور » .

أصبح تيمور الآن سيداً على تقوقر . وشطر من درس
 والمدقق الشمايه تاسب . بما فيها حرا القروين والآرن . وقامت
 البلاد الواقعة في هذا الملك شاسع بدفع حربه المفروضة عليها .
 فتدفقت الأموال على حرائر سمرقند في سيل عريض غير منقطع .
 ودفع تيمور ثمناً عالياً هذا الحاد . لأنه أصيب بفقد أمر
 الناس لديه . فالأمرء دهشوا بصحيه الحرب . ولم يبق منهم
 إلا القريقين « وحيتى بهاتور » لقي حقيقه وهو يعبر نهر اسير .
 « وشيخ على بهاتور » أصيب بطعنة حمجر من جاسوس تركى
 ومات على الأثر . وكانت أشد المصائب التي انحلح ها قلده
 موت ابنه « عمر شيخ » بسهم أخصاه في القوقار . وقد سمع
 هذه المشاحة قوب . « لقد وهبه الله في وشاءت قدرته أن يخرجه
 منه » ثم أمر أن ينقل جثمانه إلى سمرقند .

وقصد تيمور المدينة الخصراء . وبنى إلى قصر جديد كان

قد أمر ببائده . ولزم الصمت والعزلة عن الناس . ورفض أن يستقبل أحداً من الأمراء أو القواد أو رجال ديوانه . وكان يقضي وقته مكباً على رقعة شطرنج وحيداً . لا مؤنس له سوى التفكير العميق أصول الأمد .

وفي أحد الأيام قام مبكراً من نومه . وشد الرحيل إلى سمرقند وزار قبر ابنه جاهدنجير . وأمر بتوسيعه وتنسيقه لينقل إليه رفات ابنه الثاني « عمر شيخ » .

ثم استدعى الأمراء والقواد وأمر أن يتجهز الجيش للمسير . ولما سئل إلى أين قال : إلى بلاد الفرس .

غزو فارس

كان تيمور مرتبطاً مع شاه العرس رأس أسرة المطهر
بمعاهدة . وحرص الخاسان على احرمها . وأحسن الشاه بدنو
أجله . فأرسل إلى تيمور هدية ثمينة وخطاباً مطولاً جاءت فيه
العبارات الآتية : « سأودع هد العالم قريباً . وأميني أن أحمل
معى يوم الحساب تلك المعاهدة التى عقدتها معك . حتى
لا تؤنبني بقصصها . لأنى أعتبر صداقتى معك أعظم نصر لى
فى حياتى . فأنت حكيم كسليم . وعظيم كالإسكندر .
وإنى لأطمع فى أن أضع اى المحبوب « رين العابدن » تحت
حمايتك . وأدعو الله أن يطيل حياته فى صل رعائتك . هل
يساورنى شك فى أن حلالتك مستحافظ على العهد والميثاق » .

ومات الشاه . وتبارع الملك عشرة أمراء . واستعر خيب
الحرب بينهم . واقتطع كل منهم مدينة كبرى وأقام نفسه ملكاً
عليها . واضطرب الأمن وسادت الفوضى فى البلاد . ورأى
تيمور أنه أولى بحكم هذه البلاد العبية من أمراءها المنشقين على
أنفسهم . فشد الرحال إليها سنة ٧٨٨ هـ - ١٣٨٦ م فحيش عدته
سبعون ألف رجل . ووصل أولاً إلى أصفهان . وعسكر حارجه

وحاء أميره ليستقبله وبجيبه فرد تحيته بمثلها . ثم صاحاه بقوله :
 إنه لم يغادر سمرقند ويقطع ألف ميل مع جيشه فخرده الرهبة
 أو سماع الكلمات المعسولة . ولكنه يعي أن يفرض حكمه على
 البلاد الفارسية . فيكون أمرؤها ولاية من قبله يديون له بالطاعة .
 وينفذون أوامره . ويدفعون الحرية التي يفرضها عليهم .
 وإلا فالسيف حكم بينه وبينهم . ولم يجد الأمير ممراً من
 الخصوصو لتيemor ودفع الحزبة في الحال .

ولما قبل الليل دخل بعض جنود الشتر المدينة وهم عرّول من
 السلاح . وانتشروا في أرحائها طلباً للهو والتسوية . ودخلوا
 الحانات وعشوا بها . وثار العاصر المتحمسة من شباب الفرس
 لدى رؤية هؤلاء للدخلاء المتعصرسين . فتجمعوا بقيادة أحدهم
 (وكان حداداً) وانطلقوا في أحياء المدينة . وتصيدوا الجنود
 وقتلهم عن آحرمهم . ووقعت هذه الثورة بسرعة فلم يتمكن أمير
 المدينة ولا رجاا الضبط من قمعها .

وفي الصباح علم تيمور أن ثلاثة آلاف رجل من جنوده
 قتلوا داخل المدينة . فغضب واستسلم لعريزة الانتقام التي طبع
 عيب قومته . وأصدر أمره إلى الجيش أن يفتح المدينة ، وأن
 يعود كل جندي ومعه رأس قتيل من أهلها . ونفذ الجيش هذا
 الأمر . فاستحالت المدينة إلى مجررة بشرية محيمة . وأحجم

بعض الجنود عن الاشتراك فيها خشية أن يعتالوا رجلاً مؤملاً
 وادعاً ، ولكنهم اتاعوا رعوس القتلى من رملاتهم . وفي آخر
 اسهر تكديست أمام تيمور سبعون ألف حممة من الضحايا .
 وأمر أن تقدم منها أرباح في الشوارع الرئيسية بمدينة .

وسار تيمور إلى المدن الفارسية الأخرى . وكانت أخبار
 فاجعة أصفهان قد سبقته إليها . فاستسلمت إليه كلها دون
 مقاومة أو اعتراض . وأقام عليها حكماً من أمرتها . يدينون له
 البطاعة . ويدعون له الحرية .

وكان الفرس في هذا العهد مرهقين بالصرائب الباهضة التي
 فرضها عليهم حكامهم السابقون . فأمر تيمور أن تخفف
 هذه الصرائب إلى أقصى حد مستطاع

ويذكر المؤرخون أنه لما جاء تيمور إلى شیراز أرسل في
 طلب الشاعر الدرسي « حافظ » واستول عليه الخوف . ومثل
 بين يدي العاهل العصيم في أعمار بالية ليستدر عطفه .
 فسأله « ألسنت أنت القائل » لو أن فانتني بشيرار وضعت
 قلبي بين يديها لوضعت سمرقند أو بخارى تحت قدميها
 قال نعم يا مولاي . قال : لقد أخذت سمرقند بعد السيف
 وحميتها بالكنوز التي أحملها إليهم من البلاد التي أعروها .
 فكيف تستطيع أيها الصعلوك الخفير أن تصعها تحت قدمي فتاة

شيرازية " قلب . إن هتات لسانی یا مولای هی التي أودت فی
 فی اشقر . وهوت فی ای مصیری هدا . . . هعدرفی ! فسر
 تیمور من إحتاته وأمر له بجمع کثیر من الأس .

أصحت إمبراطورية عرس اعینه کلها تابعة لتیمور .
 ولكنها كانت مهددة فی حدودها العربية بالترکان أنسخ
 « قره یوسف » الذي أسس لنفسه دولة فی أرمينية وکردستان
 سنة ١٣٧٦ م . وكان رجلاً حریثاً قوی اشکیمه . لا تقف
 مظامعه عند حد . وأراد تیمور أن یأمن شره . فصار من شیر
 إلى الشمال فی اتجاه بحر قزوين . وشن علیه هجوماً شديداً وهرمه
 ودد جيشه . وقصى علی لقوده . وترع مدينة الموصل علی
 أعالي الدجلة . ثم سار منها إلى مدينة تبریز . فم تقومه .
 وفتحت أبوابها له . وكان لها مجلس من أهلها یدیر شئوها .
 فعرض علیه تیمور حرية سنوية فدفعها فی الحال .

وكانت تبریز إذ ذك أكبر وأعی مدينة فی العلم بلغ
 تعدادها مليونین وربع مليون من الأتس . واحتلظ بأهلها
 جاليات من الفرس والسصورین والخورجین والعرب وفريق
 من تحار حنوة . وكانت مركزاً لتبادل سحارة بین شرف
 والعرب . تمر بها القوافل القادمة من آسيا وتتجه عرباً إلى آسيا
 الصغرى وموانئ البحر الأبيض . أو جنوباً إلى بغداد والخليج

الفارسي . أو شمالاً إلى سيبيريا وروسيا . فلا عجب أن يقصدها
 التجار من أنحاء العالم ليبيعوا ويبتاعوا ويستوردوا ويصدروا .
 وقد ذكر ابن بطوطة الذي زار هذه المدينة أن باعة العبر
 كانت لهم سوق كبيرة مخصصة لهم . وأنه لما مر بتجار الخواهر
 ذُهل وعُشّي بصره من المعروضات العالية التي لا يحصوها عد .
 ولا يعرف بالصسط مقدار الضريبة التي كانت تدفعها
 هذه المدينة سنوياً لتيغور . ولكن يقدّر إنها تزيد على دخل
 ملك فرنسا في ذلك الحين .

مأساة الابن الثالث

أصبح تيمور في الثالثة والخمسين من عمره . وقد اتسعت
 أملاكه شملت إمبراطورية الفرس العظيمة وشرطاً من العراق ،
 ولم يشأ أن يواى فتوحته . فعاد إلى سمرقند طلباً للراحة . ولكنه
 لم يحط بها . إذ استقبلته أخبار مزعجة عن ابنه « ميران شاه »
 الذى كان قد عييه حاكماً لإقليم بحر قروين . فقد تنف حوله
 عريق من دسمان السوء وأعروه على الإدمان فى شرب الخمر
 وتعاطى المحدثات والاهماك فى الملذات فانصرف إليهم مسرفاً
 فيها . حتى فقد اتزان عقبيه ، وأصابته نوبات عصبية ارتكب
 فيها أعمالاً جنونية فشرب الخمر عساً فى المساجد . وقذف
 بالأموال وأحواهر من نوافذ قصره بيلتقطها الجمهور . وأمر
 بهذه النقصور والمستشفيات فى مدينتى تبريز وسلطانية .
 وأقبلت على القصر سيدة مقنعة مرتدية ثوب الحداد .
 وظلّت المثل بين يدي تيمور . ولما عرف الحرس اسمها
 مسحوا لها الطريق . فدحت على الأمير وحيته ، فسألها عن
 حاجتها . فكشفت عن وجهها فإذا هى « حان زاده » زوج
 ابنه جدهنجير . فحجبها . وهاله أن يراها حريئة باكية .

فاستفسر عن السبب فقالت : إنها كانت مقبلة مع خدمها وحاشيتها في إحدى البلاد التي يحكمها ميران شاه . فسولت له نفسه أن يعتصمها ، وحملها قسراً إلى بيته بالرغم من مقاومة أتباعها . وأسفرت جريمته الشنيعة عن جبين يتحرك في أحشائها . وقد استطاعت أن تمر وتدعاً إلى والدها الخوون وتمضي إليه بما أصابها من خزي وعار .

وانتفض تيمور عصاً . وحز في نفسه أن تمتحن كرامته . حان رادة في حياته وقد كانت زوج ابنة الأكبر . الذي احتل المرحلة الأولى في قلبه . ولم يكن في مقدوره أن يرد قضاء بائداً . ولكنه أشفق على أرملة ابنه . وحباها بعطفه . ووهبها أموالاً كثيرة وضياعاً واسعة وزودها بالحواري والخدم والحرس . لتعيش في كنفه معرفة مكرمة منيعة الحجاب .

ولم يطق صبراً بعد ذلك ، فشد الرحال إلى مدينة سلطانية . وتمقد بنفسه آثار التخريب الذي حل بها . وأمر بقتل « ميران شاه » في الحال . فقص عليه وسبق أمامه مقيداً دليلاً . وهما تدخل الأمراء قائلين : إنه صغير السن . قبيل الحرية . دفعه نزع الشباب إلى ارتكاب المساوي التي ربيها له رفقاؤه . ولأن تيمور أمام إلحاحهم . ولكنه عرله عن الحكم . وحرده من سلطة الأمراء ونفوذهم . وأمره أن يظل مقبلاً في البلاد التي كان

حاكماً عليها . خاضعاً لسلطان حاكمها الحديد الذى عينه مكانه .

وصب تيمور حم غضبه على أصدقاء له وندامى شرابه
فقتلهم جميعاً . ويتساءل التاريخ هل كانت « حان زاده »
منزهة عن الخطأ عفيفة حريصة على عرضها . أم أنها أوقعت
هذا الفتى الطئش فى شرك أحكمت تدبيره بدهائها المعروف .
مع الاستعانة بجمالها الساحر وجاذبيتها التى لا تقوم ؟ . وسواء
أكان هذا أم دالك فإن بنتها « خبيلا » التى وضعت من « ميران
شاه » آثار فتنة هوجاء بعد موت تيمور . واستولى على العرش
فترة من الزمن . وكانت أمه أقوى نصير له .

تنظيم الإدارة

انصرف تيمور بعد ذلك إلى تنظيم الإدارة في ملكه التاسع .
الذي ضم شعباً كثيراً غير متحاسة في النعم والنعمة والعدوات .
كالتر وبلور والترك والفرس وغيرهم . وكان همه الأول أن تصل
هذه الشعوب موالية له راضية بحكمه . فإذا ما ظهرت بوادر
الثورة في مصققة قريبة أو ثائية قمعتها في الحال بقسوة لا مثيل
لها . وطمش بالمخربين عليها . حتى لا تقوم لهم من بعد
قائمة .

وأصلح طرق القوافل ومهدا ونصتها . وبنى فيها بيوتاً
للنوم والراحة . وأمدّها بآداء من أديب ممتدة بينها وبين البلاد
القريبة . وأقام على الطرق حراساً من الحديد والصباط . وجعلهم
مسؤولين عن صيانة الأمن فيها وسلامة المواصلات . وكان تجار
القوافل لا يدفعون سوى صريية واحدة . مع أن بعضهم كان
يقطع في بلاده مسيرة خمسة أشهر . وقد تيسر بهذا النظام تبادل
التجارة بين أنحاء الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبين
الشرق والغرب . وكان أهم الطرق وأطولها هو المعروف بدرب
حراسد العظيم . يبدأ من الصين وصحارى حوى . ويتجه شمالاً

نحو « أمانك » ثم يميل عراً إلى سمرقند فسدناية وتريز وأخيراً إلى القسطنطينية .

وقد وصف هذا لطريق كلا فيجو (Ru) de Gonzalez (lavago) الذي كان صغيراً لأسابيا لدى تيمور في سنتي ١٤٠٢ م . ١٤٠٣ م . وقد رواه أن صريق ثمهدة نظيفة لا تنفع العين على حجر واحد ملق فيها . وتتخللها مندرل للراحة يتوافر فيها الغذاء ولذء العذب الصافي . وبها محطات لتبادل الحبل والإبل . والأمن فيها مستتب .

ووضع تيمور بصماً دقيقاً لمريد يكفل به سرعة الاتصال بجميع البلاد التابعة له . ونسلم لرسائل بصادرة منها ، وإرسال لأوامر للحكام وقود الحشد . فقسم الطرق إلى مساوئ متساوية بأعمدة أقيمت عليها . يبعد أحدها عن الآخر بقدرسخ واحد . أى نحو خمسة أميال . وزود رجال اليريد بدواب سريعة . وثمرهم أن يواصلوا السير ليلاً ونهاراً . وأن يختاروا في اليوم الواحد اثني عشر عموداً أي ٦٠ ميلاً . وأعد فم مسرل يستبدلون فيها بالدواب المتبعة غيرهم . وحمل حراس اصرق مسئولين عن سلامة هؤلاء الرجال .

وكان تيمور حواسيسه في بلاد يرسلون إليه تقاريرهم عن كل صغيرة وكبيرة تقع تحت حشهم . ويحبطونه عندما بأخبار

حكاه وفوده وزعماء قضاة . وكذا يتحرون الصدق فيما
يكنون . لأجله كانوا يعلمون أن افتراء كذب أو حثاق
الحوادث عقابه الإعدام .

وكذلك أحمد يتسبون مرتداتهم من بيت الله . وقد حرم
عليهم أن يتعرضوا للأهل بفساد أو مكروه . ومعهم من
دخول البيوت بغير دعوة من أصحابها .

وفرص ضرائب على لأرضى الزراعية . تحصى بعد جمع
محصول . وتقدر بثلاث قيمته . وتدفع عيباً أو فضة . وتنقص
نسبة الضريبة على الأرض التي تعتمد على المطر وحده . أما
الأرض المزروعة على المزارعين الذين يستطيعون إصلاحها .
وتعفى من الضريبة إلى أن تحدد بمحصول جيد .

وقطع دبر المصوص وقطع أطراف . وجعل حكام البلاد وصراط
الطرق مسئولين عن أي متاع مسروق . ولم يبرأ برده لصاحبه .
وحارب من يقضى على الشحدين ولم يفلح . وزرع عليهم
الحزب ونحوه يومئذ . إلا أن هذا لم يمنهم من مراوغة مهتهم
المتدولة ونفسهم جميعاً . وبعد فترة قصيرة ظهر حلفائهم ينادون
في المهرقات . يا حق أنت الكريم . فاضطر أن يتجاهل
مهمهم . ومن سخط أن هذا الرجل الشديد البطش الذي انتصر
في جميع الحروب التي شها على العالم . أعوزته الحيلة مع

اشعدين فرجع اذ مهم

ومن مريب امره انه في ذمة شب لاه . وشعب من
 هذا انه حثط بعهد قديم من معون و . وحذر احد
 احماد جنجيزخان ونصبه حراً على البلاد . وشيد له في
 سمرقند قصر عظيم يسو حرمه رفعة . واحده قصور
 بحر واثرف و . في شعبه وكلمه كد في صا نفسه من راء
 المسقية . لا يشركه في احد . حل في لاه في مساحد
 كد بالامر تيمور وحده وقد نزل على حده حرفة مكورة
 من كمنين فارسيين . رستي رستي . ومعه الحق
 بتموه

ومن أشهر صفاته انه كان يفتي حين وجب شعاعة
 ويكفي كل حسي أو صا أو قد يفتي على عمل حن
 أو يخاصر حياته وقد فصل المكورة في حرمه مارية أو نك
 أمير كما ينعه من مريب وكب يموت في هذا لاه راء في ناس
 يصحون بسعدتهم ورحمتهم في سسل تشرف يستحقون مني
 المكافاة مهما غلا ثمنها .

وكب مدهل بالترقية في مريب الخس راعون في ناس
 ومن شعاعة ومحبية ستنس وقد عاد سولا دوا فيه نك
 الجند . وفيه امام كل منهم لاه لاه سخرة ولقده .

أراد تيمور مرة أن يستولى على حصن إيراى مبيع يسمى « انقعه ايبصاء » أقيم على قمة جبل . وكان الطريق إليه وعمر المسلك . إذا اقتحمه عدو أصيب بخسرة فادحة . وحرب الحيد أن يتسفقوا الصحور مرة بعد أخرى . ولكمهم كانوا يرتدون عنها تحت وابل من السهام التي كانت تصوب إليهم من الحرس وتقتل بهم . وحر تيمور فيما يفعل وحدت منه انقته إلى أعلى السور فرأى حدياً من خيشه يظهر فحأة بين الحراس وبشهر سيفه . ويهجم عليهم عمده . ويفتحهم بضربات سريعة صائه . وقد انصرفوا إليه متحدين عن مواقعهم في الحراسة . ونهر تيمور هذه الفرصة فأمر جنوده بتسلق الصحور على انوار . فأطاعوا أمره . ووصلوا إلى قمة السور . وأخذوا زميلهم وتعصوا على الحراس وسقط الحصن . واستدعى تيمور هذا الحندي الناسل الذي حاصر حياته ليشعل الحراس عن رمي السهام . ودهش لما رآه سليماً من الأذى . مع أنه ظن مشتكاً مع الحراس مدة صوبلة وقتل منهم عدداً كبيراً . وسأله عن اسمه فقل . « آك بوحد » ومعها الحندي ناسل الأبيض اللون . هذحه تيمور وعينه قائداً لعشرة آلاف . ووهه مبدعاً من المال يكفل له عيشاً رعيماً طول حياته . وأهدى إليه عدداً من الخيل الأصيلة . وبعض الجوارى الثمات .

ولم تستقر الأمور في بلاد فارس ، لأن أمراء عادوا إلى
 نزاع . وقدت الحرب بينهم تحولا . وتعلب عليهم الشاه
 « منصور » وقصص على « رين العابدين » أن الشاه امتوى وسمل
 عيبيه بالحديد المحمي وجمه وصطر تيمور أن يسير إليهم .
 واستصحب معه ابنه « شاه رح » وقد استطاع أن ينصر
 عليهم وينفي قوتهم . وكاد يفقد حياته في إحدى المواقع ، لأن
 الشاه منصوراً رآه يتفقد الموقعة من بعد . فهجم عليه فحاة مع
 شزيمة من الفرسان . ومد تيمور يده ليستل سبعة ، فلم يحده
 لأنه أعزل أو يحملة . فأصبح أعرب من السلاح ، ولكنه
 استطاع أن يتفدى الصربات المصونة إليه بحركات سريعة إلى
 أن أقبل فريق من جنده وشتتوا أعداءه وهزم الشاه منصور
 واصطر أن يقر . ولكن « شاه رح » تنع أثره وعدد حاملا رأسه
 وألقى به تحت قدمي أبيه .

وأمر تيمور « بقصص على أمراء الفرس ثم قتلهم . وستثنى
 منهم « رين العابدين » فكرمهم وأرسله إلى سمرقند . ومهد له
 سبيل الحياة المترفة المأدبة .

وبدأ حكم هؤلاء الأمراء نحو الفرس من شرور ثمرة
 المصير التي عاثت في الأرض فساداً من سنة ٧١٩ هـ - ١٣١٩ م
 إلى سنة ٧٩٧ هـ - ١٣٩٤ م .

قصة الحشاشين

عمر يحمور أنه ما زال في سنين ورس وكر جماعة
الإسماعيلية « سدئية » . فهدمه وقتل سكانه جميعاً . ويطلق
سم الحشاشين على هذه الجماعة . وتروى عنها قصص
كثيرة . محسن لتبنيها

وإسماعيلية في من أئمتها ينسب لإسماعيل بن جعفر
صادق . التي يرجع نسبهم على من في نسب وقد تفرقت
عنها جملة لإسماعيلية في أواخر القرن الحادي عشر
رحمهم رحمن من حرسهم يسمى حسن الصباح وقد لفت حوله
عدد كبير من الأتباع . من سكان البلاد الجبلية الواقعة
حده في حر وروين وسفوح في سنة ٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م
ن منقلب مدينة « الموت » ثم حصنها وأقام فيها .

ولكن يستعمل قتل من لا يؤمن بتعاليمه أو يسخر منها .
وتقصاء على أنه شخصيته في آتية بعزها حصر عليه . ولجأ في
تخفيه أعرضه إلى وسائل سرية مستعلا مدينة مدعة واستقدمهم
في براحة مدبرة . وكانوا ضووح له من مداه ، يغري أحدهم بقتل
غير أو حاكم في بلد قريب أو بعيد فلا يشعر هذا المأسكين

إلا وقد أصابته طعنة حنجر من مجهول سبب فيه حثية .

وكان به في هذه الحال صحت كثيرة . مما يفهم منه
السلحوقي الذي كان من قبل صديقاً له .

وقد تمكن أن يهرب من أن يمشوا وروعاً منهم في سورية
وعبرها . ونحفظوا في ما كان حبيباً ميسراً .

ومات حسن الصباح سنة ١١٢٤ هـ . وأنت اورتنة إلى
دربته . فتعقبوه أيضاً من أن يسروا على يده . ويسب إليهم
قبل خلعتين بعدد . يسرشد . ويرشد . وأمرأ حلب ودمشق
والموصل . وأميرين من المسيحيين رايموند وكونارد

Great Raymond of Tripoli & Conrad of Montemar .

وقد سب بشدة هذه الجماعة فرعاً وروعاً بين موت آتيا
وأمرأ . وكان طبعاً أن ينتشر صدى في كل بلاد . وأن
يتقال لدى أخباره . موسعين فيه حال الحزن . وأن يسو
إليه كل حرمة لم يعرف له عيباً .

وكان آخر رمماهم ركن بين بين ورت أنه سنة
١٢٥٥ هـ . وهو لم يتمتع بمقصده سوى سنة واحدة . لأنه أُعزى
أحد أتباعه قتل أمير من معونه . فعصب عاهله « مانجوجان »
وسير إليه أحد هؤلاء . فادبر حصونه وسوى على قنعة
« الموت » وعبرها من فاحشه . وقتل من أعوانه ثلثي عشرين

وقض على ركن الدين وأرسله إلى الحجاز فأمر بقتله . وهذا
انقرضت هذه العشقة من بلاد العرب . ولكنها ابتدأت تظهر
ثانية في عهد تيمور . فقصي عليها أم في سورية فقد تولى
أضاهر بيبرس هذه حصونها وهدمها .

كيف تسمى لرئيس هذه الجماعة أن يعرى أتباعه يرتكب
جرائم القتل في بلاد عربية عنهم . وكيف يطبعونه مع
ما يتعرضون له من خطر يحقق على حياتهم .^١ جيسا عن هذا
استؤل ماركو بولو , Marco Polo الإيطالي لدى مر بلاد
العرب سنة ١٢٧٤ م وسمع الشائعات التي يتناقلها الناس عن
هذه الطائفة . ودونها في مذكراته . وقد وصف الوسائل التي
كان يتبعها رعيهم علاء الدين الملقب بشيخ الحبل . ولدى
تولى عليهم من سنة ١٢٢٠ م إلى سنة ١٢٥٥ م يقال إن هذا
الرجل اختار ودياً فسيحاً بين جبلين . وأحاطه بقلاع وأسوار
عالية وعرس فيها حمة أرضية تنمو بها أشجار النخلة والأرهار
العصرة . وتساق فيها حداد من الماء الصافي والندى والعسل
والخمر . وتتخللها قصور أنيقة ريت بأثاث مرخوف بالذهب
والخواهر . وترتفع في جنباتها فتيات حيلات . يرقصن ويعين
ويعرفن على الآلات الموسيقية .

فقد أورد شيخ الحبل أن يغتنم أميراً عمداً إلى اختيار فتى

من أتباعه معروف بخفة وإقدام . ويرس في صله ويستقبه
في قلعة الحصينة وينحدث معه في الدين وضرورة التمسك به .
ويسهب وصف الحمة التي أعدت للمؤمنين وفي ثناء
الحديث يقدم لثنى شراب لذيذ الصنع مروح بالحشيش .
فيحتسى جرعات منه . تتحدر منها أعصابه على الأثر ويستول
عليه النوم فيحمل إلى الخدومة . وعندما يفيق يجد ما لا عين
رأت ولا أذن سمعت . فيصرف إلى التمتع بالأكل والشرب
والإسهالك في المندبات الحصينة ثم يسقيه الثمنيت شراب
الحشيش . فتعثره عيونة بحمل في أنثائها إلى القعدة وعند
ما يصحو يتساءل أين كان ؟ فيجيبه شيخ الخيل : لقد هيأت
لك ريدة غابرة للحمة . فيتمسك منه أن يعيده إليها فيجيبه
قائلاً : إن الحياة الأبدية فيها حفت بالمكاره . وتستمر منك
الإقدام على عمل ديني وحب اسناد . وهو أن تقتل الأمير
فلاماً . فإذا أصببت مكروه في تأدية هذا الواجب حملتك
الملائكة إلى الحمة لتحبها فيها حياة سرمدية . وإذا عُدت سالماً
سهبت لك سبيل الوصول إليها . ولا يساور الفتي شك فيما يسمع
لسذاجته واعتقاده الراسخ في زعيمه الديني . فيصرف وقد
عقد اليقينة على تأدية الرسالة التي عهد إليه بها .
وروية ماركو بولو محتملة الوقوع على ما بها من عرابة .

إذ الثابت أن شيوخ الحبل استغلوا نفوذهم الديني وبساطة
 أتباعهم في الوصول إلى أعراضهم الشخصية . وكان كثير من
 أمراء آسيا يخشونهم ويتقربون إليهم . ويتدارلون لهم عن بعض
 أملاكهم تجنباً لأذاهم : وكان لأتباعهم في سورية نشاط
 بالغ الأثر . وقد سماهم الصليبيون « أساسين » (Assassins)
 وهي معرفة من كلمة حشاشين وأخذها عنهم الأوربيون ،
 وأطلقوها عامة على الذين يقتفون جريمة القتل .

بغداد ودلهي

بعد أن أخضع تيمور الفرس وراضوا أنفسهم على حكمه
 فكر في الاستيلاء على بغداد التي نقيت لها شهرتها في العالم
 الإسلامي وإن كانت تقنيات الزمن قد طوحت عمجدها
 وعظمها . وكان حاكمها لسلطان أحمد الخلايري لا يملك من
 السلطنة إلا اسمها . ويدين عمر كره للحماية التي يستمدّها من
 مماليك مصر الذين كانوا يحكمون فلسطين ودمشق .

وسار تيمور نحو بغداد ودحها دون مقاومة . لأن السلطان
 أحمد لم ينكر في الدفاع عنها وفر إلى مصر وفرص تيمور جرية

على بعدد وأقام عليها حكماً من التتر . وعاد إلى سمرقند ثم
أوفد رسلاً إلى سلعند مصر الناصر ناصر الدين فرح يطلوب منه
أن يحدد إلى السلم وأن يعمل على تبادل التجارة بين الشرق
والغرب . واشتد السلطان من لهجتهم وغلطتهم فأمر بقتلهم .
ثم سر نجش قوى نحو بغداد وطرد التتر منها وأعاد للسلطان
مركزه . وتعاضى تيمور عما لحقه من المصريين لأنه كان يعد
العدة لغزو الهند فقصده سنة ٨٠٢ هـ - ١٣٩٩ م ماراً
بمدينة كابل . واحتار ممر حير تسعين ألفاً من جنوده .
وشق صريقه إلى دغى فتصدى له لسلطان محمود ولكنه باء
بالحزيمة ولم تنفعه قبالة في تشتيت التتر . لأنهم لم يخافوا
سرعم من أنهم لم يروها من قبل . وكانوا يقدمونها تشاغل
ملتبهة فتفر مدعورة . واضطر السلطان محمود أن يسحب حياته
لاحثاً إلى الجنوب . وهذا أصبحت الأقاليم الشمالية من الهند
تابعة لتيمور . فأقام عيب حكماً من التتر . وجمع منها
كموزاً ونهائس وأموالاً لا يحصى عد ، وعاد بها إلى سمرقند .

ودخل تيمور عاصمته للمرة الثامنة دحور القاتح . وحرح
أهلها لاستقباله وقد تجملوا بأهلى الثياب . وأقاموا انزيات
على بيوتهم وحوالياتهم . واكتست الطرقات المؤدية إلى القبة
بالأسطة والأقمشة الحريرية القرمزية . وأقيمت سراى حاووم في

موكبها الفخم لتحيي زوجها . وتستمتع برؤية ابنها العزيز
 شاه رح . وحاءت حان راده في حاشيتها لتطمئن على عودة
 ولديها محمد سلطان وبير محمد . ومر التركب الملكي بين
 تهليل الجماهير وهتافهم . وقد أحاط الأمراء والقواد بتميمور .
 وأخذوا يثرون تحت قوائمه فرسه حصان من الذهب والنؤلؤ
 والخواهر . فتهدت الشعب عبيد والتقطها . ووحاة هدأت
 الحاجر وساد الصمت وشحصت الأبصار في مطر عبر
 مألوف لم يشهده أحد من قبل .

مئات من الفيلة تسير متراصنة محتالة . وتكاد الأرض
 تميد من حوط ثقلها وأحمالها . وقد كسيت أحسامها بالحديد
 ونشئت على رؤوسها وحراطينها رحارف ملونة بديعة الصنع .
 وتساءل الناس عما تحميه هذه الحيوانات الضخمة الوعدة على
 بلدهم . فعلموا أنها تحمل كور احمد وثروة ملوكها إلى حرائن
 سمرقند .

تجميل العاصمة

كان من عادة تيمور أن يقيم في عاصمته تذكيراً لكل انتصار يباله في الحرب ، ولذلك لم يمتص على عودته من أحد ثمانية أيام حتى أمر بتشييد مسجد كبير يسع آلاف المصلين . وانتهى بناؤه في ثلاثة أشهر فقط . مع أنه حوى ٤٨٠ عموداً من الصخر المصقوف وعطى فناءه بالرخام الناصع البياض . ونقشت حدارته بالآيات القرآنية . وطمع المنير بالذهب والنقصة ويقال إن قطع الأحجار من الصحور استمر وحده تشغيل خمسمائة عامل .

وكان تيمور يحب عاصمته حباً حمماً . فربها ورحمها بأبدع ما وصل إليه الفن في عهده . حتى أصبحت أحمل بند في آسيا . يرى السائر في طرقاتها ميادين مسيحة وحدائق غناء . وقصوراً عالية . ومسجد أنيقة . ودوراً للكتب . وحديقة للحيوان . ومنحفاً لآلات الحرب . ودوراً للملاهي . تعرض فيها أعمال الفروسية وألعاب الخوة السحرية . والجرى على الحمل وغير ذلك من أنواع التسلية . وعنى تيمور بأن يجلب إلى بلده مشهورى العلماء والفلاسفة من فارس وبلاد الهند وغيرها . ولم

بمس المهندسين والأضاء والدعوى في الأمن والصناعة .

وقد لاحظ مرة أن سوقاً تجارية ضاقت بالواحدين عليها
والمارين فيها . فأمر بهدمها في الحب وإشياء شارع تجارى يمتد
من ميدان نربسى في المدينة إلى النهر . وعهد بالإشراف على
هذا العمل إلى اثنين من الأمراء . على أن يتم في عشرين يوماً
فقط . ونذرهم بالإعداد والتجهيز في تنفيذ أمره .

واشتغل جيش من العمال ليل نهار في هدم المباني القديمة
وتمهيد أرض الشارع . وإقامة الخوانيت على حديه . ونقل
التجار والصالحين إليها . ومضت المدة المحددة فمر تيمور في
الشارع المصيح . وتفقد منشأته . واطمأن قلبه لأنه رواد مدينة
بمرفق تجارى عظيم .

وذهب الأهل إلى حين هدم مبانيهم إلى قضاء المدينة
وحاسبو تعويض عن الخسائر التي لحقتهم . وتشجع أحد القصة
فأبلغ الأمر إلى تيمور . فعصب وتساءل قائلاً : « أليست
لدى بلدى » . وارتعدت فرائص القاصي وقال نعم يا مولاي
ولم يرد عليه كلمة . و فكر تيمور لحظة ثم أمر أن يصرف
للأهل ما يستحقون من تعويض .

وكان لتيمور مسعد متقل . أحرؤه من الحشيش المتين
المحرف والرحح الملون . يعمله معه في غزواته على عرصات

كبيرة . ويأمر بصفه كلفه زاد تأديه الصلاة .

نما قصوره في سمرقند فكانت مصر من مثل يد حوته من
كموز ونفائس . في أحدها عرس شجرة عالية ساقها من
حصى الذهب وعصوبها وورقها من القصب . وتتنسج منها
الأحجار الكريمة والخواهر بأشكالها الكهنة وألوانها . وتظهر
بينها طيور من الذهب منون بأسطة أحمستها . وموجهة
مدفوها نحو الكهنة كأنها تلتقطها .

وكانت الخفلات التي تقيدها كبرى روحاته اسرى
حايو " الضيوف مصهراً بلذخ وترف المقصوع البصر .
فالأطباق من الذهب الخالص . والكؤوس مخرقة بالدرر
والياقوت لكبر حجم . ولآلات مطعم بالخواهر الكريمة .
وثوب الخربري موشى بالذهب والياقوت . ويحمل طرفة من
حرف خمس عشرة وصيته . وهي تكاد تنوء حمل تاحها الذي
نصدت فيه مجموعات متكاثرة من الخواهر اسدرة ساد .

وكانت هي السيدة الأولى في البلاد . ودت بقود لا يحد .
وقد حدث أن الأمير سيف الدين ستحضر معه من إيران حارية
حميلة تسمى « شادي منح » . ووقع في حب الأمير خبيل بن
حب راده من ميراث شاه فأهداه إليه سيف الدين فتسلكت
قبه بأساليب العتمة والعيوية . وأقنعته بأن يتزوجها رسمياً . وأراد

أن يحقق رغبتها . وكان تيمور إذ ذاك في الهند وعلم بالحرب .
 فُرسل أمراً بإعدامها في الحال . ولم يخبروا حبيباً أن يقوده أمر
 جده . فلم نجد الفتاة المسكينة ملجأ سوى سراي خانوم فطرحته
 نفسها تحت قدميها وتصرعت إليهما . أن تنقذ حياتها وأحترتها أنها
 موشكة أن تصع مولوداً من حبيب . فلان قلها وقانت إذا كان
 هذا حقاً فسيعمو عليك تيمور . ثم أمرت بحرقها وحيدة في
 إحدى المقصورات . وشدت الرقبة عليها حتى لا تصر
 أو يقترب منها إنسان . ولما عاد تيمور وأخبرته روحته بما حدث
 لم يعضب بخالفها أمره وعما عن الفتاة .

النزاع مع الأتراك

نزع تيمور الزراعة والستين من عمره ولكنه احتفظ بشطه
 الخماي وحده دكانه . وكان يعلم دائماً بعرو الصين وصمها إلى
 ممتلكاته . وأدرك أن هذا لمشروع الخطير يكتمه جهداً شاقاً .
 ويضطره للتعب عن بلاده بصع سنوات . ولم يكن آمناً على
 حدوده العربية حيث الأتراك والمماليك الذين قد يشهرون أهمهم
 في حرب طويلة الأمد مع الصين ليحتلوا ولاياتهم العبية المشاحة لهم .

وفداً عول على أن يوصله منكم في العرب ولا يتحقق هذا
 إلا بالقضاء على سلطة الأتراك والمماليك . وما كادت تحتضر
 عنده هذه المكرة حتى نادر بنسبته . لقد عدد من المند في مايو
 (١٣٩٩ هـ - ٨٠٢ هـ) وفي شهر ستمبر كان قد حشد جيشاً
 حاراً قوامه مائة وعشرون ألفاً من الجنود انتز الأشداء ، واتجه
 به عربياً . وقطع نحو ألف ميل في وسط آسيا مجتازاً سهولاً
 وأهوارها وصحاريها . حتى وصل إلى القوقاز . وكان أهله
 الحورجيون قد ثاروا عليه وصرخوا حكمه . فأغار على بلادهم .
 وفتح جيشهم . وهدم كنائسهم . وقتل رعيهم وحرب ديارهم
 بالسيف والبار . فاستكانوا له وحضعوا لحكمه .

وسعى أن لسلطان أحمد فر من بعد د تاركاً حاميتها للدفع
 عنها وحثاً إلى تركيا . فكتب إلى بايزيد لأول سلطان الأتراك
 يخبره بالنزاع القائم بينه وبين حيرانه . وطلب منه أن يكف عن
 مساعدتهم أو حمايتهم . وكتب بايزيد أقوى ملوك أوروبا في هذا
 الوقت . وقد استطاع في سنة ١٣٩٦ م أن يصد جموع
 الصليبيين في الحملة الأخيرة التي قدها سيزموند Sigismund
 ملك المجر . واشترك معه فيها معظم ملوك أوروبا . وكان بايزيد
 معترفاً بقوة مزهواً تمكنه . وعصب من أن يحاطه قتل هذه
 اللهجة رجل من الأتراك مهما بلغ شأنه . فرد عليه قتلاً : « اعلم

أيها الكلب المدعو تيمور أن الأثر لا يتحون عن حماية
أصدقائهم . ولا يحجمون عن قتال أعدائهم » فكتم تيمور
عبطه واكتفى بأن يرد عليه قائلًا « اعمل بصيحتي حتى
لا تندم » فثارت ثائرة بايريد وأرسل إليه حصانًا مموءًا بالوعيد
والتهديد . وبدأه باسمه مكتوباً بالذهب ووضع تحته كلمة
تيمور الأعرج حروف سود صغيرة . وحتمه بقوله إنه سيسحق
عدوه ويغتصب زوجاته .

وما كان لمثل تيمور أن يختمل هذه الإهانة . فببت بينه
على أن ينتقم من بايريد ويجعله مثلاً للسحرية ولمهانة . وبدأ
يعزو آسب الصغرى عن طريق وادي أرصروم . فكتسح مدنها
حتى وصل إلى سيوس سنة ١٤٠٠ هـ ودخلها عوة بعد أن فر
حاكمها التركي . ولم يمس تيمور سكانها المسلمين بأذى .
ولكنه جمع أربعة آلاف أرمني حاولوا مقدمته . وقرهم أحياء في
الخنندق المحيط بالمدينة .

محنة دمشق وبغداد

لم يشأ تيمور أن يواصل تقدمه في آسيا الصغرى ويحرف إلى حلب على أعالي القرات وشرعها من المصريين ، ثم اتجه نحو دمشق . فلم تقومه . ورضيت بالشروط التي فرضها عليها . ولكنه لما رحل عنها هجمت حاميتها المصرية على مؤخرة جيشه وفنكت بها وددت شملها . ولكن تيمور استطاع أن يعيد نصيب حموها وكر راجعاً إلى المدينة ودخلها قسراً وأصلق رحله بأساب وأهبط والقتل . ثم أشعل النار فيها فتوقصت مسها ودفنت حثث القتلى تحت أنقاضها . وحدث منه لفته إلى قمة المسجد الأموي وهو طعنة ناز . فأعجب بها وأمر مهندسيه أن يرسمو صورة لها . وأنحده نموذجاً بنقش التي شيدها فيما بعد سمرقند . وكانت أولها تلك القمة التي أقامها فوق قعر مسوب لسيدة تدعى بي حنوم . ويقول ابن بطوطة إن التقدم إلى المدينة من أي اتجاه يرى هذه القمة من بعد كآها معبته في السماء . وانتقل شكل هذه القمة إلى الهند . وأحده لروس عن أستر هرينوا . جميع كدسهم . وقد أقيمت هذه القمة فوق لقر الشهير المعروف باسم « تاج محل » الذي كان معدوداً من

عجائب الدنيا السبع . وقد شيده أحد أئمة نيمور المسمى
 « شاه جيهان » على مقربة من مدينة « أحرار » التي كانت
 عاصمة بهند . وجعله مثوى لرفات زوجته المحبوبة « مختارى محل »
 وأمر أن يدفن فيه بقرها . وقد استغرق بنؤه ثمانية عشر عاماً
 من سنة ١٠٤٢ هـ - ١٦٣٢ م إلى سنة ١٠٦٠ هـ ١٦٥٠ م .
 ولما بدأ العمل فيه حرم على ضوؤ أن يقيموا معاد لهم وقد
 نقش على جدرانها آيات قرآنية مرصعة بالجوهر الكريمة .
 فلا عجب أن ينشق فيه ثلاثة ملايين من الجنيات .

وبعد الكارثة التي حلت بدمشق عاد نيمور إلى حلب .
 وهناك علم أن قائد الحامية التي تركها السلطان أحمد في بغداد
 مهتم بتحصينها وتقوية وسائل الدفاع عنها . وكانت بغداد
 مضاعف من دخله ومركزاً حربياً حصراً ، إذا تمكن المصريون
 من احتلاله جيش حديد ثم أقبل نابريد من أوروبا وانحدر
 إلى آسيا صغرى . أصبح الجيش الثرى بأسره مهدداً بالهلاك .
 وكان لزاماً على نيمور أن يسرع في الاستيلاء على بغداد .
 فسر إليها في مائة ألف مقاتل . وحاصرها وصرب نطاقاً حولها
 محيطه اثنا عشر ميلاً . وقام على نهر الدحية قنطرة من السمن
 لتسهيل انتقال الجند من ضفة إلى أخرى . واستمر الحصار
 أسبوعاً . ثم أحد الحند يخفرون الأسور من أساسها . ويتقون

في الحضر قطعاً من الخشب . ويصون عليه الرية ثم يشعلونها ،
 فتهدمت أحرأء من اسور . وتسرب منها الجيش إلى دخل
 المدينة . وتعبت على الحامية وأفناها عن آحرها . وصب تيمور
 حرم غصبه على الأهدى . فقتل منهم تسعين ألفاً وفصل
 رؤوسهم . وبني بها مائة وعشرين هرمأ . ثم مر بهدم لسان
 ويشعال سار فيها أما المساحد فقد تركها قذمة . ومهدده محنة
 أصبحت دار اسلام منزلاً قفراً يعني من سه .

مصير بايزيد الأول

سفت بغداد في سنة ٨٠٤ هـ ١٤٠١ م ولم يبق في غربي آسيا عدو يخشاه تيمور أو قوة تهدده . ولكنه كان دائماً الخلد من « بايزيد » موهباً أن هذا الخصم العبد لن يرعى نصيب ولاياته الآسيوية . وأنه سيقبل من أوروبا جيش راخر ليطرد التتر ويقتص منهم .

وأعد تيمور عدة ملاقاته . فرحل إلى « تبريز » التي اتحد لها قاعده لأعماله الحربية . وأرسل إلى حفيده الأمير محمد (وهو ابن حن رده من حاهنجير) أن يوفيه سبعة من الجيش المرابط في سمرقند . ولم تخص بضعة شهر حتى قبل الأمير جيش عظيم توافر فيه العدد واعتد . وأخذ تيمور يفكر في الحطة الحربية التي تمكنه من التغلب على عدوه

وكان بايزيد منهمكاً في حصار القسطنطينية . وبتوقع سقوطها يوماً بعد آخر وما إن علم باستيلاء لئتر على « سيواس » حتى رفع الحصار وركب البحر ونزل إلى بروسة بجيش يربو على مائتي ألف حندي . وسار به إلى أنقرة . وعلم تيمور بقدوم حصنه فشد الرحيل من تبريز إلى سيواس وعسكر بها .

واحتار بايريد ميداناً مهيئاً يصلح لإدارة المعركة الحربية .
وصرب فيه معسكره خائلاً أنقره حمله

ومرت ثمانية أيام في سكون رهيب لا يدرى كلا خصمين
ما يدره له الآخر . وجاء نفر من الكشافة الأتراك . وأخبروا
بايزيد أن تيمور خرج من « سيواس » بحيشه . ولم يترك فيها
سوى حاميتها . فسأهم إلى أين اتجه . فقلوا لا ندرى . ولكننا
بواصل البحث . وعلى حين عرة هجمت فصيلة من تتر على
الحيش الأتراكى من أقصى يمينه . واشتكت معه في معركة
حامية . ثم عدت أذراجه سرعه . وتوهم بايريد أن جيش
التتر في الخبأ حيث فرت فصيلتهم . فأمر حيشه بالرحيل في
هذا الاتجاه . وحال في اسير بضعة أيام باحثاً عن عدوه فلم
يعثر عليه . وفي هذه الأثناء كان تيمور يقصع الطريق إلى
أنقرة ووصل إلى معسكر « بايريد » فاحتله ونظم حدوده فيه
ولم يحاول أن يستولى على أنقرة . واكتفى بالاستعداد للملاقاة
خصمه .

وأدرك بايريد أنه خدع . وأن مواصلة البحث لا تحدى
نفعاً . فعاد أذراجه . قاصداً معسكره . ولكنه وجد عدوه قد
سبقه إليه . فعز عليه أن يتراجع ووصد عزمه على مباشرة القتال .
بدأت المعركة في يوم قنط من صيف سنة ١٤٠٢ م .

وكانت الكثرة العانة في الجيش التركي من المشاة . أما التتر فكان حل اعتمادهم على الخيالة وهؤلاء أصحح لقتال في الميدان الفسيح الذي بلغت حافته ١٥ ميلاً . فلا عجب أن تدور الدائرة على الأتراك بالرغم من بساطتهم وشدة بأسهم . بدأت المعركة في الصباح ونهت عند غروب الشمس . وأصيب الأتراك حسارة ودخة . واضطرت النوبة باقية مهم أن تمر مدعورة في أنحاء متفرقة . فتعقبهم التتر وأبادوا بعضهم . وشردوا البعض الآخر . واشترك بايريد في القتال بنفسه وأبلى بلاء حسناً . وقتل عدداً كبيراً من أعدائه ، ولما أيقن أنه مهروم لا محالة حاول الفرار . ولكن فرسه أصيبت بسهم فسقطت . ولم يستطع أن ينحو بنفسه فوقع في الأسر وسبق مكبلاً إلى تيمور فاستقبله واقفاً . وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة وأمر أن تملك قيوده . فقال بايريد : لا يليق أن تسحر من رحل تعنى عنه ربه . فرد عليه تيمور قائلاً : لست ساحراً ولكي أتسم لأن الله قد قسم العالم بين رجلين أحدهما أعرج . والآخر أعمى . يشير بذلك إلى الخطأ الذي أرسله بايريد إلى تيمور ودعاه فيه بالأعرج وهدده باعتصاب روحته . ثم أردف تيمور قائلاً « على أي أعلم ما كان يصيبني لو قدر لك النصر » . وسأل بايريد عن أبيائه فأمر تيمور بالبحث عنهم .

وتضح أنهم لا ذو بال قدر ما عدا اثنين أحدهما قتل والآخر
 وحده ضمن الأسرى . فعلى ما معززاً مكرماً إلى والده .
 وأكرم تيمور معدة يريد . فأعد له وسائل الراحة
 والمتعة في معيشته . لأنه شدد الرقعة عليه حتى لا يقلت منه
 واهتم تيمور بعد ذلك بتوسيد سبخته في آسيا الصغرى .
 وكان هدأً بغيراً . لأن مدب الشبهة كنفرة ونيتيا وغيرهما
 فتحت أبوابها له دون مقدمة وسر القند نور الدين إلى
 بروسة فاستولى على كنوز يريد وعرشه ونبحانه وأسر روحاته
 وجواريه . وجمع مكتبة بربطة شبهة التي كان قد اغتصبها
 بايزيد وأودعها خزان بروسة وحمل كل هذه الأسلاب إلى
 تيمور . وكانت مدينة أرمير في يدي فريق من الصليبيين
 ينسول إلى القديس يوحنا St. John وجمع تيمور أمها استعصت
 على يريد . بالرغم من محاصرته ها ست سوات متولية .
 فشد الرحيل إليها ولم تقف أمامه سوى أسوعين . وصطر
 الصليبيون أن يخمدوا لائحين إلى السفن الراسية في ميناء . وجاء
 أسطول من حرية رودس لإبقدها . فجهاد تيمور بقذيفة
 ألقتها على أقرب سفينة . ولم تكن هذه لقذيفة سوى رأس
 أحد الأسرى من الصليبيين . وقرب الأسطول من المدينة . ولم
 يكن تيمور مستعداً لموقعة بحرية . فأحلى المدينة ولكنه ترك فيها

تذكر من لربارته القصيرة ، على هيئة هرمين مناجم من حجاج
الصليبيين .

وانصرف تيمور بعد ذلك إلى تصهير آسيا الصغرى من
الأتراك . فجهدهم من أرضها وكان اسلطان أحمد اخلايقي
قد أحسن بما سيحل بأن عثمان . فقدر بالرحيل إلى مصر
ضاماً في حمية المناسك . ورأى « قره يوسف » أن جيرة
العرب فصل ملحقاً فصر إليها .

ونصر تيمور إلى مصر فرأى الطريق مهيده لها حلال
فلسطين . واتحد الأتراك لعروها . ولكن سلطانها استرصد
قبول دفع الحرية والنداء باسمه في المسحود ومثل الأمر .
فخص على خليفته بغداد الذي لحق به ورجع في اسحق
وم يشأ تيمور أن يدخل أوربا مع أنه كان على أبوابها
وقد شعر بخين إلى وطنه فتصل أن يعود إليه

وقد عاودته ذكرى الإهانة التي لحقت من ما يريد له عرض
كرامة روحته . وتقد لعريزة لانتفاء التي فطر عليها انتز .
وعول على أن يرد الإهانة ثمنها . فامر أن يقدم حقل عظم
بنهاجاً بانتصاره على آت عثمان . ودعا إليه الأمر والنود
وكسر لصسط ورجل ديونه . وطلب من ما يريد أن يحصر .
ومثل للأمر وقدم إليه تيمور تح آت عثمان . وشرت

مكهم . فسب متوجماً أن تيمور يناع في كرمه ودرت
 ألون الطعام وأصاف شرب . وعلا الصحيح وصحب
 بين نعمات الموسيقى وأعنى شتر القومية التي تذكهم بأنفسهم
 وانتصاراتهم في الحروب . وعلى حين غرة سبق إلى الخجل
 فريق من ساء دلائى حردن من شيس . وأمر أن يقم على
 خدمة الحضريين . وتدرس فيهن نايريد فرد هن روجاته وجواريه
 وبينهن دسبينا Despina اصرية التي كان يحبها حباً يفوق
 العادة . فكاد يصعق من شدة الخجل ، وقام مهزولاً يريد
 الخروج . فأمسك به اشد من لخصه وسيراه بين الخموع
 لمترجة من تأثير الشرب ليستمع إلى عبارات السحرية وحره .
 وسفاه أثيراً إلى محبسه . وعاد تيمور إلى رشده وأحس بأنه
 بالغ في إذلال سيرة . فأرسل إليه « دسبينا » قائلاً إنه بعيد
 إليه روجته المحونة وصاق بييريد درعاً باحبة فحرص ومات
 بعد عدة شهور .

وبشاع عن تيمور أنه سخن « بايزيد » في قفص وسيره في
 ركبه من مدة إلى أخرى معرضاً إياه لاستهزاء الجماهير
 وهذه الرواية تتشبه مع الواقع . ومنشؤها شعر بالخوارج بن عربشاه
 جاء فيه أن ابن عثمان وقع في فخ لصياد وحجر كنه طير في
 قفص . وأحد بعض المؤرخين هذه العبارة بظاهر معناها

وقتل هـد الشعر كان في خدمة السلطان أحمد الخلايرى .
ثم رحل إلى سمرقند وأقام بها وكتب تاريخاً مفصلاً لتيـمور .
ولا شك أن تيـمور أساء إلى بايزيد عندما استنقله بعد
واقعة أنقرة . وأدل كبرياءه في الحفلة الحاشدة التي دعه
إليها . وفيما عدا ذلك فقد كرمه وأحاطه بعطفه . وما مريض
أرسل إليه طءاه ليعنوا بصحته . وكان طبيعياً ألا يقوى بايزيد
وهو مريض على ركوب الخيل في لسمر مع تيـمور إذ سمرقند .
فأعدت له عربة لينام فيها هـدئاً مستريحاً . ونشأت من ذلك
فكرة الفمض دى القضاة . وما يتبعها من تعريض بايزيد
لسخرية الجماهير .

تيمور الحزين

ويشء القدر أن يقب فرح تيمور ببصره حرباً عميقاً ،
لأن حبيبه الأمير محمد أصيب جرح في أنقرة وأصبح طريح
الفرش يقاسى من الألم أشده . وصل مرضه فم يطق تيمور
صراً وبدر بالرحيل إلى معسكر حبيبه ولم جانه إلى أن
أسلم روحه . وكان هذا الأمير قرة عين حده . ومعود الجيش
لشهامته الفائقة ودمائه أخلاقه .

وقد شعر تيمور أن هناك إرادة فوق إرادته تسلبه أعز
الناس إليه . فقد مضى حاهنجير ونعه عمر شيخ . وهـ
حبيبه الذي كان يعد له لورثة ملكه قد اختطفه الموت وهو في
ربيع الحياة .

وأمر تيمور أن تحفظ حثة فبيده ، وأن تحمل معه إلى
سمرقند . وكم كان يود أن يفتديه بالكنوز التي تكدست عنده
من عروته الأخيرة وفتوحاته الساقية . ووصل الركب إلى تيريز ،
فمرحت « خان رادة » لتستقبل حثان انها . وقد ذاب قلبها
حرباً وعماً . وسمع تيمور بكاء أطفال اعقيد وعويلهم فكادت
نياط قلبه تتمرق . وهروب إلى سرادقه واعتكف ، عن الناس

فترة طويلة كعادته في مثل هذه الظروف .

وبقي تيمور في تبريز إلى أن وفي لشدء وقبل الربيع
وفي هذه المدة نظم إدارة السلاط التي فتحها ، وأمر بإعادة بناء
المدن التي دمرت كبغداد وخرجانية وغيرهما ، ثم سافر إلى
سمرقند . وكان أول عمل بأمره بها بناء قبر عظيم للأمير محمد ،
نعوه قبة من الزخام الأبيض المصنوع بالذهب . ثم فحص عن
أعمال الحكام الذين تولوا إدارة السلاط في لشدء عيونه . فكافأ
بعضهم وأمر بإعادة البعض الآخر

ولأمر غير معروف أمر بإقامة الأعياد في السلاط شهرين
كأميين . وحذر أن يسأ أحد نخاء « لم تفعل هذا » . لقد
بلغ تيمور التاسعة والستين من عمره فهل بدأت قواه العقلية
تترعرع ؟ أو أن أحزانه حاورت الحد ونقلت إلى الصد ؟
أو أنه يريد أن يتنفس عن كربه ؟ ومهما كان السبب فقد كان
أمره مقدساً لا يجوز أحد على مخالفته . واحتفل اشعب بهذين
الشهرين كأن أيامهما عيد متصل . وقامت الزببت والأفراح
في طول السلاط وعرضها وأقبل على سمرقند مدويون من عشرين
دولة . بينهم سفراء من الصين ومصر وأندلس . واستقبلهم في
حفل رسمي مهيب ، وتقبل هداياهم العظيمة . ومن غريب أمره
أنه أمر أن يجلس سفير أسبانيا في مكان أعلى من سفير الصين ،

قنالا : يا لأول قدم من جهة الله وصديقه ميت تسديا .
 أقوى ملوك الفرنج يس يعيشون في طرف الآخر من العالم .
 أم مدروب الحسن فلا يمشي إلا نساء أثمياً .

آخر المطاف

لم تصل إقامة تيمور في سمرقند سوى ثلاثة أشهر . جمع بعدها مجلس الأمراء . وقال هم : « لقد أسسا لثغر إمبراطورية عربية مهينة . وأرد في سبيل تدعيمها غروش الملوك والسلاطين والأكسرة . وسيجلد التاريخ ذكرنا . وقد كنتم خير عون في الحروب . وكان النصر دائماً حليفكم . وقد عرونا كل آسيا ، عدا الصين . وليس من العسير عليكم أن تكتسحوا هذه البلاد الوثنية وإليها أقصد فهلموا بترحيل معي »

ويدان قال تيمور كلمة فلا راد لها . كان الشتاء قد أقبل وهبت العواصف تفتح الوحوه بمردها القارس . وتساقط الثلج فعطى انطرفت بطقة سميكة ببضاء . ونجمدت مياه الأنهار وفي هذه الظروف القاسية حرج من سمرقند حيس كثيف يسع مائتي ألف رجل . مولياً وجهته إلى الصين . وقد عهد تيمور بقيادة المهمة إلى حفيده « حليل » .

وحذر الجيش - سمرقند . وتفت تيمور من فوق هرسه لبقى بصرة على عاصمته . فلم يستطع أن يثبني قواها ومادها وقصورها الشاححة . لقد ضعف بصره واسترحت أحقادها حتى

ليتهم أن يطر إليه أنه في سبات عميق .

وواصل الجيش سيره إلى الشمال حتى بيع مدينته أونرار على
نهر لسيير . وكان الماء قد جمد فيه إلى عمق مترين . ورثى
تيمور أن ارحل يموتون من تعرضهم لبرد شديد لشدته يرد . والحيل
تسقط ويهدك . فأمر أن تضرب الخيام ويأوى فيها الجيش
وقد ربيع سنة ١٤٠٥ هـ . فأمر تيمور أن يتبأ الجيش
للسير . وفي اليوم الذي حددته قرعت طبول الحرب . وصدحت
الموسيقى بنغماتها العسكرية . واصططعت فرق الخند بقوادها
وعلماتها ليتقدمها القائد الأعظم كعادته ويتقل منها التعبة .
وجاء الحرس لحصن نياهم الراهية وعدتهم الحربية الكاملة .
ووقفت فرس تيمور البيضاء تحت الراية الملكية منتظراً لقدم
صاحبها . ولكنه لم يصره . وطال انتظار الجيش عبثاً ونساءل
عن اسب لقد شاءت القدرة الإلهية أن تضع حداً لفتوحات
تيمور ومصمعه فاستدعته إلى دار الأبدية .

مرض تيمور فجأة في أونرار . ولم يذع نبأ مرضه .
وسندعى إلى سرير مرضه أمهر الأطباء فلم يستطيعوا أن يردوا
القصء محتوم . وجاءت روحته الأولى سراى خالوم لتبقى
لخاصة وتتولى خدمته . وشعر تيمور بدنو أخيه فأرسل في طلب
الأمراء الذين رافقوه في حملته الأخيرة . فحاصروا ولتموا حول

سريه برءوس خاشعة وقلوب حريية وعيون تذرف الدمع
وعريير . وحان ببصره فيهم ثم قال بصوت خافت . « حتمصوا
بسيوفكم مشهورة بين أيديكم . ولا تحزنوا ولا تفرقوا ثيابكم حداد
على . فهذا ضعف لا أرضاه . ولا تحلقوا فيتفرق شملكم
وتنصيبكم المريبة . وقد احترت بير محمد بن جاهد خير ليرث
ملكى وأصبعوه . وشدوا أزره . وليجعل إقامته في سمرقند .
ولنكر له السطة المصنفة في إدارة شؤون البلاد القصية ولدانية .
ولتسند إليه رياسة الجيش . ولا تحجموا عن عروا نصيب . »

وفاء كل أمير وأقسم بين يدي تيمور يمين الإخلاص وأودع
لون عهده مع الخرص على تنفيذ وصيته . وساد سكوت رهيب
ثم همس تيمور قائلا « كنت أحب أن أرى ابنى « شاه رح »
ولكن هذا مستحيل » ولمط أنفاسه الأخيرة .

وعريب أن تحرى على لسانه كلمة « مستحيل » . مع
أنها لم تسع منه في الخمسين سنة التي قصدها في الحكم .
واجتمع الأمراء برياضة نور الدين أكثرهم هماً . ونفقوا
على أن يواصل الجيش سيره إلى الصين لعروها . وبعثوا رسولا
إلى « شاه رح » في هراة بخراسان . وأحر إلى بير محمد في
المسد لإحضرهما تما وقع . وحبس على التعجيل بالقدوم إلى
سمرقند . ثم سيرا حتما تيمور إلى سمرقند . في حراسة فرقة
من الجيش يقوده « أولوع بج » بن شاه رح .

تنازع الأبناء

شد حبيب عن رأى لأمرء قتالا . به لم ينحصر ودة حده
ولم يسمع وصيته ولم يقسم ابني عنى احزما . وسوت به نفسه
أن يعتصب نكث . واستصاع أن يفتح الصراط في فرق الحيش
اتى يفوده بالانصاف إليه وأسرع بالسميرى سمرقند ، وددى
بنفسه منكأ عليها . وتمكنت أمه « حار رده » بدهائها أن
تستميل إليه حاكم المدينة فكان خير عصلة له .

وبعت الأمر هذه اشورة التي كانت أول مادرة بالانقسام .
وعدلوا من الرحيل إلى نصيب . وولوا وجهتهم شطر سمرقند .
فوجدوا أبوابها معتمدة دونه . مع أن سراى خانوم كانت في
مقدمة ركبهم .

وكان في ستصعة نور لدين أن يفتحهم المدينة بفرق
الحيش المولية للأمرء . ولكنه آثر أن يتجنب حرماً داحية .
وأخذ يتربص ، متمحص عنه الحوادث .

وكان حبيب شاماً مقتولاً صائناً كأبيه ميران شاه . لعبت
عقله تلك الحارية الإيرانية « شادى ملح » فتروحها رسمياً
وجعلها مدكة على التمر واستعمل سلطانه قمص رجب الديوان

المقدامى ذوى الخبرة والسود . واستندل بهم طائفة من الفرس
تحريره في ميوله ونزعائه . وقد بهرتهم الأموان الضائقة التي تكسدت
في حرائن سمرقند فبعثوها بغير حساب . وكادت روحته إذا
أخذتها بشوه الحمر رمت الذهب ولأحجار الكريمة من نوافد
قصرها . لينتقطها أى عار سبيل . وأساءت هذه الفتاة إلى
« سراى خانوم » التي أنقذتها من الموت . فأوحش إلى روحها
يعرم عليها دخول سمرقند . واعتدت أن تمنى كرامتها بالقاط
ناية في احتمالات التي كانت تقيمها .

وحاء « بير محمد » من اشد فتعب عليه خليل وهرمه
وشنت جيشه . ورأى نور الدين ورملاؤه أنه لا مفر من ندهمهم
لإقصاء خليل عن العرش . فجمعوا الجيش الموائى هم وهمجوا
على سمرقند واحتلوها بعد معارك دامية . وعبصوا على خليل
وصحوه وضردوا زوجته . بعد أن أهانوها وأدلوها كرامتها . ثم أعادوا
« سراى خانوم » إلى قصرها لتستمتع بنموذها السابق وتستعيد
منزلتها من الشعب .

وأخيراً أقبل « شاه رخ » من حراسان بحيش جرر .
واستولى على المدينة وسلم زمام الحكم فيها إلى ابنه « أولوع رخ » .
وفطن الشتر إلى أن إمبراطوريتهم لا تناسك أوصافه إلا إذا كان
على رأسها رجل كشاه رخ قوى الشكيمة صائب الرأى .

فخضعوا حكمه وعاهدوه على أن يشدوا أزره ويخصوا له الولاء
ورد هرت إمير طورية التتر على أيدي شاه رخ وأولوع رح .
فقد كان محبباً للسلم متعديناً عن شرور الحرب ومآسيتها .
حريصين على تقوية الدفاع عن بلادهما وجعلها منيعة على أي
طامع فيها . وقد متار بثقافة عالية وميل للعلم وتشجيع لنشره .
فرحل إبيهما العلماء والفلاسفة والشعراء وعاشوا تحت رعايتهما .
وكان أولوع رح يجيد الشعر ويتقن علمي الجغرافية والثلث .
وقد بنى في سمرقند مرصداً كان بأوى إليه ويقضى فيه لساعات
الطويلة .

وقد تمكن أحماد هدين العاهلين العظمين أن يسجلوا نصراً
لأنفسهم . إذ فتحوا الهند وأسسوا فيها أسرة حلتها التارخ
باسم المغول العظام .

وكان طبيعياً على أثر موت تيمور وقيام الصراع بين أبنائه
أن تحدث بعض البلاد التحرر من يبر التتر . ولزم « شاه رخ »
حائب الحكمة فلم يفكر في إخضاعها مكتئباً بالبلاد الشاسعة
العبية التي صت محلصة له راضية لحكمه .

وبدأت مصر ففصت الميتق الذي ارتطت به مع تيمور .
وعاد قره يوسف إلى قومه الأتراك . ورجع لسطون أحمد
أخلايرى إلى بغداد والياً عليها من قبل مصر واستعاد الأتراك

قوتهم واحتفظوا بنفوذهم في أوروبا . واستصعدوا أن يفتحوا
 المستطبية سنة ١٤٥٣ هـ . في بعد موقعة أنقرة بإحدى وحسين
 سنة ونيسر ناروس أن يتحرروا من نير انتز سنة ١٤٨٠ م
 على يد دوق موسكو الذي بدأ بتأسيس الإمبراطورية الروسية .
 ولكن هل احتفظت سمرقند بمعجده وبعلت على عدييات
 لرمس كما توهم تيمور . لقد لعت هذه المدة دوراً حقيقياً في
 تاريخ العلم . وأنحت رجلاً سادو الشعوب والأممات وحكموه
 سد من حديد . واحتلت في آسيا مركزاً شبه بروما في أوروبا
 في عهد القيصرية العظام . ولكن تقلدت لرمس طوحت معجده
 وحردت من نفوذها وسلطانها . فالقصور لشاحمة والقصور المبيعة
 اتى شبيها تيمور وأرد لها الخلود تداعت أركابها وعنت
 آثرها . وثروة التي كانت تتدفق إلى حراشها من مختلف
 الأقطار انقطع سبيلها . ولما دخلها جيش الروس في منتصف
 القرن التاسع عشر نحتوا عن المكتبة التي حملها تيمور من
 « بروسه » فلم يجلوا لها أثراً .

وزائر سمرقند اليوم يجد فيها صريحاً دافقة عالية . مداحاته
 مدفان أحدهما يعوده حجر كبير مكعب الشكل لونه
 أسود ضارب إلى الخضرة ويرقد تحته تيمور . والآخر
 يسمي «حجر أبيص» وبضم هـ رجل يسمى « مير سيد »

كان من ثقة الدين وصديقاً لتيমور .

وإد استوقف لراثر عمر سيل وسأله عن تيمور .
 أجاب : لم أراه ولا أعرف تاريخ حياته . ولكني أعلم أنه ثالث
 ثلاثة غروا العالم وأحصعوه لسلباتهم . أوشم سكندر المقدوني .
 وبييه جنجير خان . ويعقبه تيمور . ولن يأتي بعد هؤلاء
 رجل يسود عالم بعد السيف .

شخصية تيمور

المصنع على حياة تيمور يحرر في تحصيل شخصيته . والمدين عاشوا معه وخبروه احتسبوا في الحكم عليه . ومن هؤلاء الذين كد من حاشيته وكتبوا تاريخاً مفصلاً لحينته : شهاب الدين المعروف بابن عرشه الذي وضعه بأنه سديد . ماكر . باع . لا ترحى منه شقيقه ولا رحمة . وشريف الدين الذي قال . إن شجاعته سهلت له عرو آسيا من حدود الصين إلى تخوم اليونان . وأنه كان سخيماً حليماً مع الذين يطيعونه . قسياً في البطش بمن يخالفونه . عدلاً محباً للعلم والعلماء . مشجعاً على نشر العلوم والفنون ولا شك أن الظروف التي أحاصت حياة تيمور كان لها أثر فعال في تكوين أخلاقه . ومن المؤكد أنها أفقدته الثقة بالناس . فعنه دبر مكيده لقتله غير مبرر . والأمير حسبي أخو روحته تحلى عنه في موقف عصيب وسبب له الهزيمة بعد أن كان النصر محققاً ولم يتورع عن استلام حتى أخته عندما قدمها له تيمور مع الصربية التي فرضها عليه وتكتميش الذي آواه تيمور وأكرم وفادته وتنازل له طوعاً عن بعض بلاده وأمدته نال عزيز خاں عهده ورد الحميل بالإساءة . وفاحشاً حرب

شعواء يريد بها القضاء عليه وسديد مكنه ولا شئ أن هذه
التحارب القاسية أوجب إلى تيمور أن لوء لا وجود له في
العالم . وأن البر والشفقة واحلم صفات ليس هذا رد فعل سوى
إثارة الشعور بأن صاحبها ضعيف حامل وأن خير سياسة هي
الطش والإرهاب ونو أدب إلى التصحفة والأرواح

وتوالت على تيمور الأحرار مقتد زوجته لأول التي أحب
من أعماق قلبه . وموت ابنه . حاكم جبر . وعمر شيخ . وحبسه
محمد في ريعال الصا . ثم إصافة امير شاه . وعنده
الشاش على روح أخيه متوق ومخولة حبسه حيل أن يتروح
حرية إيرانية كانت من قبل سيرة لعنه . كل هذا كان من
شأنه أن يسلب تيمور أسباب التسلية والفرح بين أفراد أسرته .
فلا عجب أن نراه يبحث عنها في ميادين أخرى كساحات
القتال التي تصمم له نشوة النصر ولانتهاج يتفوقه على معاصريه
من الملوك والأبصرة . وفرص إردته عليهم . ولا عراة أن
يحيش صدره بنشآت حفية ودكريات مؤلمة . فيأمر بإقامة
الأفراح سنين يوماً كاملاً دون أن يذكر لها سبباً .

ولتيمور صفات بارزة لا سبيل إلى إنكارها . أظهرها
الشجاعة الفائقة . يشترك في القتال مع جنوده ويصرب هم مثلاً
أعلى في الإقدام فلا يلبس درعاً تقي جسمه . ويتوجه وحيداً

لمدرة حصنه تحت أسور مدينته وعلى مرمى سهم التي قد يطلقها عليه حراسها . ولا متيازاً يهدد حصنه كان يتدبرها في عده ويكافئها بسخاء . وبمقت الحاد ويرد ربه ويعرضه بسحرية وكان موحساً على تلاوة القرآن حربصاً على تأدية هر بصي للصوم والصلاة . وقد أعد مسجداً مستقلاً بجمعه معه في رحلاته وغروته لينجم فيه الصلاة .

ومن حسنة حبه لتعلم واعلماء . ومبته المصون الرفيعة . وهذا زخر بلاطه بنخبة من رجال العلم ولأدب والدين والفس . وبالشعراء المجلدين . وفي دفعته هذه العاصفة إلى أن يحمل إلى سمرقند مكتبة بربطة الشهيرة . وأن يجلب إليها نقاش نمن وثمرات الصناعات الدقيقة التي تقع عليها عيه في أسلاد التي تمر بها . ولا يفوتنا ذكر تلك العاطفة الحميمة التي أوجت إليه قد عه لشاعر الفارسي « حافظ » ومسحه بإياه ملعاً كبيراً من الناس .

وكان حم الشاط حتى آخر رفق في حياته . مع التسعة والستين من عمره الممنوء بالكنماح والجهاد . فم يمنعه الحرم من أن يتحجر لعرو الصبي . ويقصدها على رأس جيش كثيف . في جو غابس وبرد فارس وطبيعة ثائرة .

وكانت سيئته في الحرب حرر لصر دأيه وسينة مهمما استدرمت من نفدت وتصحيات . فقد يشعل اسار في مدينته

بأسرها وبيع سكانها جميعاً شير رعب في مدينة أخرى
فتستسلم له طائفة .

وكثيراً ما كان ينفذ لعريضة الانتقام التي هي ذات القبائل
الرحل . ومتى استسلم فلا حد لما يرتكبه من مصالمة . دبح في
أصمهن سبعين ألف رجل . وبنى لهم منهم أبرجاً في شوارع
المدينة لأن سكانها ثاروا على حدوده وقتلوا منهم ثلاثة آلاف
رجل .

وكان أحداً يراجع نفسه بعد أن تبدأ ثورة غضبه .
ويخوف أن يصلح ما فسد . يشعل النار في المسح حتى تلتهمها .
ثم يأمر بنائها من جديد . كما حدث في عدد وحرجابية .
ويتهم كرمه بإيريد ويعرضه لسحرية في جمع صاحب من
حاشيته . ثم يرسل إليه روحته الضريبة التي هم بها .

وقد حرص على أن يدير شئون منكه بنفسه . ويخمس
حكامه على كل صغيرة وكبيرة . ويكفي من يتوحي عداله
منهم ويقتل من يظلم اربعية . وما عزم أن اسمه مير شاه أساء
الحكم في حوزم عرله في الحول . ولم ينفذه من الإعدام
سوى تدخل لأمراء ولحاخهم في صب العفو عنه .

وكان حدود تيمور يخبونه ويضيعونه ويتنافسون في إرضائه .
ولولا ذلك ما استطاع أن يخرج مستصراً في كل وقائعته الخريبه .

وما نيسر له أن يشيئ إمبرصوريته لعظمة ولا شئت أنه
امتاز بقوة شمزية خفية حدثت به إليه ورفعت منزلته عندهم إلى
مرتبة التقديس .

وحي لا نصف نيمور إذا حكم عليه تمايز عصرنا
الخاص . فقد عاش مدة ستة قرون في ظروف عصبية وحياة
يسودها القلق والاضطراب ، ويرعجها التناقض المريب بين
ملك . ويصدق فيها مبدأ الحق بقوة . وفي هذا العهد زاد
نيمور أن يجعل قومه التتر سادة لا مسودين . أقوياء غير
منصعبين . منصحين تحت لوته ، إلى اعتراف أن يشتره فوق
ربوح آسيا من شرقها إلى غربها . وسلك لسبيل التي عتقد
أنها كصية بتحقيق عرضه وقد سجل له التاريخ حسنات
ومسيئات . والطبيعة لشرية لم تنزهه عن الخطأ . والعصمة
لله وحده .

i19018238

B12595615

main



0 0 0 0 0 0 2 0 9 7 4

DS 23 F35x 1954

AUC - LIBRARY



DATE DUE

31 AUG 1980

15 JUL 1988

DS

23

F35x

1954